أعطني قلبك

بقلم

قداسة البابا شنوده الثالث

الطبعة الأولى

٢٠٢١م

الكتاب: أعطني قلبك

المؤلف: قداسة البابا شنوده الثالث

دار النشر: كنيسة السيدة العذراء بالزيتون/ رقم ١٠٢١

الطبعة الأولى: ٢٠٢١م

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٢٧٢٧/ ٢٠٢١م

الترقيم الدولي:978-977-334-282-1

صاحب القداسة والغبطة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٨

صاحب القداسة والغبطة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

طُرس البركة

قداسة البابا تواضروس الثاني

وإن مات فهو يتكلَّم بعد.

غزارةُ المعرفة وعُمقها في حياة المتنيِّح قداسة البابا شنوده الثالث جعلَته يترك لنا تُراثًا روحيًا وأدبيًا وكنسيًا ربما لم تشهده أجيالٌ كثيرة قبلًا. وفي نفس الوقت هذا التُراث لم نحصره تمامًا حتى الآن.

ورغم أنه نَشر أكثر من ١٥٠ كتابًا بأحجامٍ متنوعة وفي موضوعاتٍ عديدة تغطّي مساحات كبيرة من المعارف المسيحية الروحية والكنسية والآبائية، والتي تُرجِم معظُمها إلى العديد من اللغات، حتى صار اسمه معروفًا عالميًا أنه "مُعلِّم الأجيال"، إلا أنه ما زال يوجد الكثير مما لم ينشر بعد.

وننشر لكم بعضًا من ذلك التُراث الخالد والذي لم يُنشر من قبل.

ونقدِّم لكم كتاب:

أعطني قلبك

وسوف تجد عزيزي القارئ متعة خاصة وأنت تستمع لصوت قداسته

عبر الصفحات وبعد رحيله. يُعلِّمنا ويروينا من فيضِ معرفته وروحياته وخبراته العميقة.

تقديري ومحبتي لكل من ساهم في إخراج هذه الكتب إلى النور خاصة مركز "مُعلِّم الأجيال لحفظ ونشر تُراث البابا شنوده الثالث" في كنيسة السيدة العذراء مريم بالزيتون بالقاهرة.

نفَّعنا الله ببركة صلواته لأجلنا كنيسةً وشعبًا وضعفي. ونعمته تشملنا جميعًا.

البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ١١٨

قداسة البابا شنوده الثالث في سطور

١- وُلِدَ في ٣ أغسطس ١٩٢٣م، باسم نظير جيد روفائيل. في قرية سَلاَّم بأسيوط.

٢- حصل على ليسانس الآداب – قسم التاريخ –، من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليًا).

٣- التحق بالقوات المسلحة – مدرسة المشاة – وكان أول الخريجين من الضباط الاحتياط، سنة ١٩٤٧م.

٤- تخرج في الكلية الإكليريكية "القسم المسائي" سنة ١٩٤٩م، وكان الأول على الخريجين – فعُيِّنِ مُدرّسًا فيها.

٥- عمِلَ مُدَرِسًا للغة الإنجليزية والعربية، في إحدى المدارس الأجنبية.

٦- أتقَنَ الشعر منذ ١٩٣٩م، وكتب كثيرًا من القصائد الشعرية.

٧- في سنة ١٩٤٩م: تَكَرَّسَ للخدمة في الكلية الإكليريكية وبيت مدارس الأحد في روض الفرج بشبرا، وتولى رئاسة تحرير مجلة مدارس الأحد.

٨- صار راهبًا في دير العذراء الشهير بالسريان في ١٨ يوليو ١٩٥٤م.

٩- تمت سيامته بيد البابا كيرلس السادس، أول أسقف للتعليم والكلية الإكليريكية والمعاهد الدينية، باسم الأنبا شنوده في ٣٠ سبتمبر ١٩٦٢م.

١٠- بدأ الاجتماعات الروحية التعليمية منذ سنة ١٩٦٢م، واستمر فيها حتى نياحته سنة ٢٠١٢م.

١١- أصدر مجلة الكرازة في يناير ١٩٦٥م، واستمر في تحريرها حتى نياحته

سنة ٢٠١٢م (واستمرّ قداسة البابا المُعَظَّمْ تواضروس الثاني في إصدارها).

١٢- اختارته السماء بالقرعة الهيكلية وتمَّ تجليسه البابا الـ١١٧ للكنيسة القبطية الأرثوذكسية يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧١م.

١٣- نَمَتْ الكنيسة القبطية في عهده، داخل مصر وخارجها؛ في كل قارات العالم: أفريقيا وآسيا وأوروبا وأستراليا والأمريكتين: الشمالية والجنوبية.

١٤- حصل على تسع شهادات دكتوراه فخرية من كبرى جامعات أمريكا وأوروبا.

١٥- امتدت الكلية الإكليريكية في عهده، وأصبح لها ١٦ فرعًا في مصر وخارجها.

١٦- كتب أكثر من ١٥٠ كتابًا ونبذة في كثير من المجالات الكتابية والروحية، واللاهوتية والعقائدية وفي الخدمة والرعاية والتربية.

١٧- قامَ بسيامة بطريركين و٥ أساقفة لكنيسة إريتريا و١١٢ أسقفًا وأكثر من ٢٠٠٠ كاهنًا و١٠٠٠ راهبًا.

١٨- قامَ برحلات رعوية ورسمية لكثير من بلدان العالم، وصلت إلى أكثر من ٨٠ رحلة.

١٩- رقد في الرب في ١٧ مارس سنة ٢٠١٢م، وكانت جنازة قداسته مهيبة وعظيمة، حضرها أكثر من اثنين ونصف مليون شخص، بشهادة الأنبا باخوميوس، مطران البحيرة ومطروح والخمس مدن الغربية والقائم مقام البطريرك. نيحَ الله نفسه في فردوس النعيم، ونَفَعْنا بصلواته.

هذا الكتاب

يتشـرَّف "مركز معلِّم الأجيال لحفظ ونشـر تراث قداسـة البابا شـنوده الثالث" أن يُصـدِر لك أيها القارئ الحبيب كتاب "أعطني قلبك" وهو تجميع من مقالات قداسته.

في هذا الكتاب يكلِّمنا البابا شـنوده عن أهمية القلب وعلاقته بالمشـاعر والفكر والإرادة واللسـان، وعلاقة القلب بعمل الإنسـان الروحي، وحياة الإيمان العملي والحياة بالوصـية الإلهية، ولذة العبادة والتلذُّذ بالصـلاة والصوم والعطاء ومشاعر الاشتياق لله، والتوبة حيث أنها رجوع القلب لله وانتزاع شهوة الخطية من القلب وزرع شهوة البِر به، وأن القلب هو السبب في الخطية أو البِر.

ويكلِّمنا أيضًا عن أنواع القلب الصالح والطالح، والمتواضع والنقي، والقلب الكبير والقلب العطوف والشفوق.

ويشرح لنا أمراض القلب الروحية والنفسية: من القساوة والكبرياء ومصادِر كل منها وأسبابه ومظاهره، ثم يتدرَّج بنا إلى أساليب وخطوات العلاج: من اتِّضـاع وطول أناة، والهدوء وكيفية اختبار القلب وفترة الاختبار، وفوائده ووسائله ومجالاته، واكتشاف نقطة الضعف في الإنسان لمحاربتها، وحياة الهدوء في القلب والفكر، وكيف يصـل الإنسـان إلى نقاوة القلب التي بها

يعاين الله.

ونتمنى لك أوقاتًا مباركة مع هذه الكنوز الثمينة لتكون لنا جميعًا فُرَص للتمتع بالعشرة الإلهية وتحويل قلب الإنسان إلى مسكن لائق لحلول الله فيه بتحويل هذه الكلمات إلى حياة مقدســـة كما قال رب المجد: "اَلْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ". بشــفاعة ذات الشــفاعات معدَن الطُهر والجود والبركات والدة الإله القديسة الطاهرة مريم العذراء وبصلوات مثلَّث الرحمات البابا شنوده الثالث نفَّعنا الله ببركاتهم

القمص بطرس بطرس جيد

مركز معلم الأجيال

لحفظ ونشر تراث البابا شنوده الثالث

الفصل الأول

السيد المسيح منفتح القلب

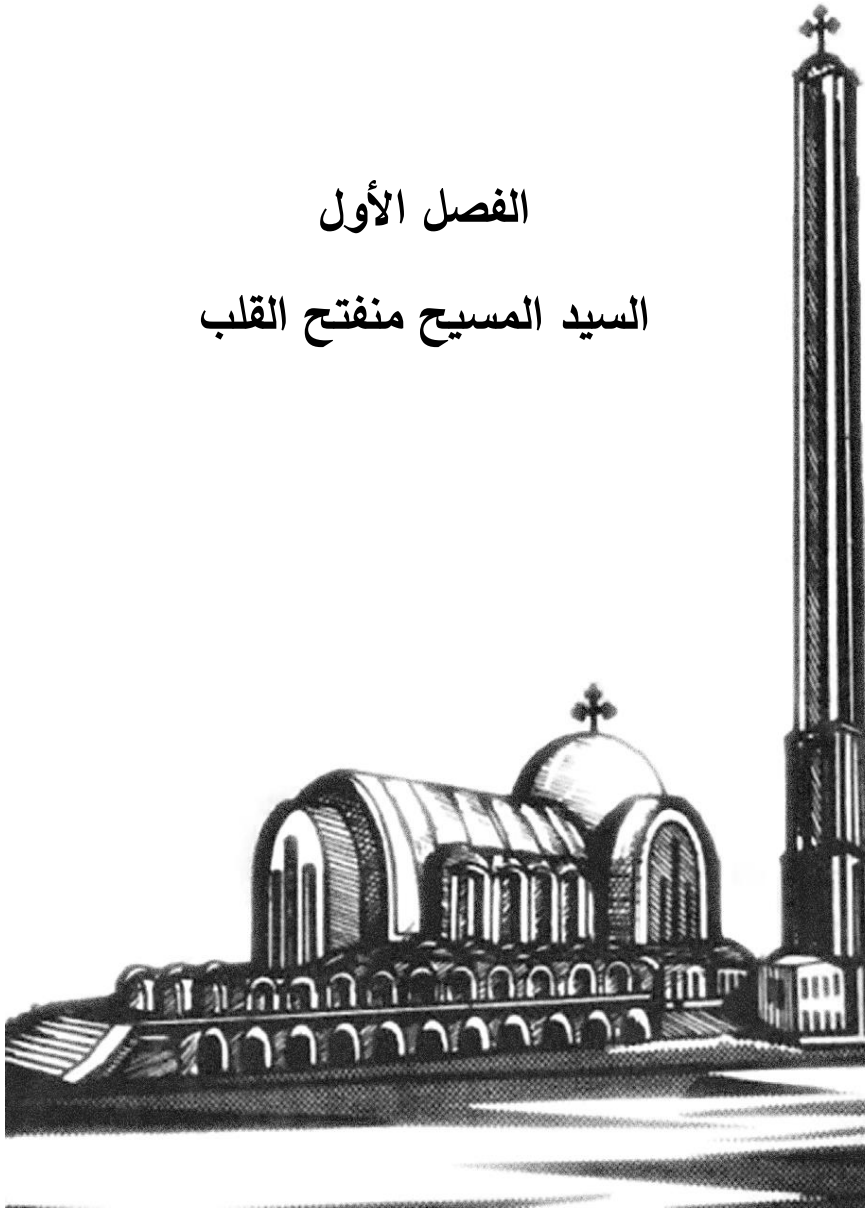

المسيح منفتح القلب

كان المسيح منفتح القلب يحب البشرية كلها دون فارق من الجنس أو اللون. لقد تغنى المسيح بأنشودة جديدة هي أنشودة الحب والقلب الكبير الذي يدخله الناس جميعًا.

لقد كان من بين صفات السيد المسيح في المحبة الانفتاح على الكل... قلبه منفتح على الكل، مفتوح لكل قريب وغريب، لقد أدخل مبدأً جديدًا لم يكن موجودًا في الأمة اليهودية، فالشعب اليهودي كان وما يزال منغلقًا على نفسه، وتشعر الأمة اليهودية أن الله لها وحدها وليس له اهتمام ببقية الناس... فجاء السيد المسيح في ذلك الوقت... وقت الانغلاق الذي اتخذته الأمة اليهودية وانفتح على الأمم كلها، الغرباء الذين ليسوا من أصل يهودي.

منفتح القلب لكل الأمم

فعندما شفى ابن قائد المئة قال للناس الحق أقول لكم إنني لم أجد في إسرائيل كلها من له إيمان مثل إيمان هذا الرجل، "أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ أَجِدْ وَلاَ فِي إِسْرَائِيلَ إِيمَانًا بِمِقْدَارِ هذَا!" (لو٧: ٩)... وانفتح قلب المسيح في المشارق والمغارب لكل أمة، لم يصرفه عن هذا الانفتاح فارق من الجنس أو اللون أو الوراثة، وأعطى الأمثلة أنه ينبغي الانفتاح على كل الناس

وعدم التحوصـــل كالأمة اليهودية المتحوصـــلة البعيدة عن كل الناس... ويقول لتلاميذه: "وَتَكُونُونَ لِي شُـــهُودًا فِي أُورُشَـــلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّـــامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَـــى الأَرْضِ" (أع١: ٨). لقد فتح قلوب تلاميذه للناس جميعًا في أقصـــى الأرض، "اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا" (مر١٦: ١٥).

هكذا كان المسيح مفتوح القلب لكل إنسان... كل إنسان يستطيع أن يجد له نصيبًا في قلبه، منفتحًا على جميع الناس من كل نوع حتى الذين كانوا ينتقدونه ويعادونه مثل الفريسـيين، فقد كان الفريسـيون يناصـبونه العداء ويحرجونه بالأسئلة ويتهمونه ومع ذلك أحبهم.

وأغلقت مدينة السـامرة أبوابها في وجهه فأراد التلاميذ أن يغلقوا قلوبهم في وجهها... فوبخهم المســـيح وقال لهم أنه يفتح قلبه لهذه المدينة التي أغلقت بابها في وجهه. وسار ست ساعات ليصل إلى السامرة لكي يهدي المرأة الســـامرية عند البئر.. والســـامرية ذهبت إلى المدينة وأهل المدينة كلموه وبدأوا يؤمنون به.. **وانفتحت السامرة أمام المسيح.**

لقد ظل يبحث عن القلب المغلق حتى فتحه، لقد كسـب السـامرة.. ترى لو ظل تلاميذه في حالة الانغلاق.. هل كانت تؤمن الســـامرة؟ لقد آمنت السامرة فيما بعد، ودخلت في الإيمان وانفتح لها قلب المسيح.

منفتح القلب للعشارين والخطاة

العشـــارون وهم خطاة من أشـــد الناس خطية... انفتح لهم أيضًـــا قلب المســـيح، وكان يأكل معهم ويشـــرب ويحضـــر ولائمهم لدرجة أن الناس وجهوا له اللوم.. كيف يتكئ في بيوت هؤلاء الخطاة؟ ولكنه كان يريد أن يخلصـــهم ويدخلهم ملكوت الله "لاَ يَحْتَاجُ الأَصِـــحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَـــى.. لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ" (مت٩: ١٢، ١٣).

وتســـألوا كيف يكلم النســـوة الخاطئات؟! ولكنه القلب المنفتح للخطاة والمنبوذين.. كان عجيبًا في انفتاحه على الطوائف المنبوذة... المرأة في المجتمع اليهودي لم تكن لها قيمة.. وتعجب تلاميذه أنه يتكلم مع امرأة!

وفي بيت الفريسي عندما جاءت المرأة الخاطئة وبللت قدميه.. كيف يسمح لامرأة من هذا النوع أن تمسّ قدميه؟

لكن المسيح أظهر أن هذه المرأة أفضل منهم... وهكذا عطف على جنس المرأة، ويتجلى هذا أيضًـــا في موقفه من المرأة الخاطئة الأخرى، فقد قال: "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلًا بِحَجَرٍ!" (يو٨: ٧).

وهكذا نجد نســـاء كثيرات يتبعنه ويخدمنه، وعند صـــليب المســـيح وقفت النسوة، وفي ثالث يوم ذهبن للقبر يحملن الطِيبَ.. **هذا هو القلب المفتوح للمرأة.**

المسـيح يمثل القلب المنفتح للكل، يحب كل أحد ويسـعى وراء كل واحد ولا ييأس من محبة أحد...

يسعى وراء كل أحد

ولم يكن من النوع المنغلق في موضـــع معين، لا يجلس في مكان ليذهب إليه الناس، إنما كان يذهب للناس يجري وراءهم ويزورهم مثل عرس قانا الجليل، ووليمة متى العشار، ومثل ذهابه إلى بيوت كثيرة مثل البيت الذي انزلوا المفلوج من سقفه، كان يتحرك إلى الناس ولا ينتظرهم يأتون إليه.

كان عنده عنصـــر المبادرة، يبادر ويذهب للناس ويكوّن علاقات مع أنواع كثيرة من الناس... ولا تتصـــوروا أنه كان محاطًا بالأتقياء والأبرار، بل كان يقابل الخطاة والأشـــرار ويعيش مع كل الناس، كان كثير الأســـفار وكثير التنقل يبحث عن الناس، كان يجول يصـنع خيرًا، كانت حياته فيها حركة وبركة... يتنقل من مدينة إلى مدينة ويشـــفي ويكوّن علاقات محبة ويتجاوب مع الناس فيفتحون قلوبهم إليه، ويصبح هناك ود متبادل...

كما قال عبارة جميلة: "أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ" (يو١٧: ٢٣) وقال لتلاميذه: "اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ" (يو١٥: ٤).. اثبتوا فيَّ كما تثبت الأغصـــان في الكرمة.

كان كل شخص يستطيع أن يجد له نصيبًا في قلبه وعشرته والحياة معه

ونصيبًا من حبه، لقد أحب خاصته الذين في العالم. أنتم تعرفون أنه كان يكره الغنى والمال وكان يقول ما أصعب دخول الأغنياء إلى ملكوت الله، ومع ذلك نرى السيد المسيح يفتح قلبه لهؤلاء الأغنياء ويتضح هذا عندما أتاه الشاب الغني ويقول الكتاب: "فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَأَحَبَّهُ" (مر١٠: ٢١).

منفتح القلب للصغير والكبير

كان يفتح قلبه لكل أحد مهما كان كبيرًا أو صغيرًا... ومهما كان مركزه، لقد أحب الأطفال وكان يقول: "دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ" (مت١٩: ١٤).. وفي إنجيل مرقس يقول إنه كان يحتضن الأطفال (مر١٠: ١٦)، وهكذا نرى هذا القلب مفتوحًا لكل أحد... يحب الكل ويسعى إلى الكل، ويبادر إلى الكل، ولا ييأس حتى ممَن يغلق بابه. كما لم ييأس من محبة مدينة السامرة والأمم الغرباء... صدقوني حتى الذين قاوموه أكبر مقاومة فتح قلبه لهم.

منفتح القلب حتى لمقاوميه

كم من كلامٍ عجيب قاله ليهوذا حتى يتوب... وعندما أتى ليسلمه ويقبله قال له: "يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟" (مت٢٦: ٥٠)، "أَبِقُبْلَةٍ تُسَلِّمُ ابْنَ الإِنْسَانِ؟" (لو٢٢: ٤٨). وقال للص الذي كان مصلوبًا معه: "الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ" (لو٢٣: ٤٣). والذين صلبوه هتف من أجلهم: "يَا

أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ" (لو٢٣: ٣٤).

وبعد قيامته ظهر للكثيرين الذين قاوموه وأدخل الكثيرين منهم في الإيمان، قائد المائة الروماني الذي طعنه بالحربة تحول إلى مؤمنًا ومات مؤمنًا... كان قلبه منفتحًا على الكل.. لا يغلق قلبه في وجه أحد ولا يعيش في حياة منعزلة عن الناس. سفر النشيد يقول عنه: "هُوَذَا آتٍ طَافِرًا عَلَى الْجِبَالِ، قَافِزًا عَلَى التِّلاَلِ" (نش٢: ٨)، ويقول: "هنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي" (رؤ٣: ٢٠).

وهناك من يعيشون في حياة انعزالية بعيدين عن غيرهم لا يتجاوبون معهم... افتحوا قلوبكم على آخر ما تستطيع أن تُفتح... افتحوها لمن يطرق على أبوابها... افتحوا قلوبكم ولا تعيشوا منعزلين.

وهناك نوع منفتح، فإذا قوبل بصدمة انغلق وتعقد!! لا... إن الناس يختلفون، فيهم الحلو والمر، عاملوا الناس وخذوا الخير الذي فيهم... أما الشر فصلوا لكي ينجوا منه... **أحبوا الكل ولا تعيشوا منعزلين فإن المسيح لم يعش منعزلًا، كان محبًا ومحبوبًا ويفتح قلبه لكل أحد.**

كان المسيح يمثل الرجل البسيط المنفتح... يجلس مع الناس على الجبل في عظة الجبل، وعلى شاطئ البحيرة، ووسط الحقول... ويقول: "**أُنْظُرُوا** إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ

السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا"، ويقول: "**تَأَمَّلُوا** زَنَابِقَ الْحَقْلِ" (مت٦: ٢٦، ٢٨). ويمشي في الشوارع والبرية، في القفر والجبل، يدخل البيوت، يعيش مع كل الناس يعايشهم وينفتح لهم.

هكذا كان المسيح في انفتاحٍ نحو الكل، وكان يقول: "تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (مت١١: ٢٨).. **كان الذي لا يجد أحدًا يهتم به يجد الاهتمام من المسيح، كان يهتم بالكل...** يفتح فمه وعاطفته للكل، لم يعش إطلاقًا وحده، كان يمثل الشخص الذي يحب الناس ويعيش في وسطهم وزحامهم ومحبتهم لدرجة أن زكا لم يستطع أن يراه وسط الزحام فصعد إلى الجميزة ليراه، وفي وسط الزحام لم يكن ينسى أحد... فهو يهتم بكل فرد وكل قلب.

المرأة نازفة الدم استطاعت وسط الزحام أن تلمس ثوبه وأن تأخذ شفاء لنفسها وجسدها وبركة منه ولم ينسها.

كانوا يميزونه في اليهودية بأنه الشخص الذي حيثما يسير تجتمع حوله الناس وتزحمه، وقليلًا ما يجدونه وحده...

كانت له جاذبية عجيبة تجذب إليه الناس، لقد قرأت وأنا صغير قصة الموسيقي الذي كان يحب الأطفال، ودخل مدينة يغني فيجتمع حوله الأطفال ويسيرون خلفه حتى التف أطفال المدينة كلها والناس من حوله.

أنشودة الحب

السيد المسيح كان هكذا.. يغني أنشودة الحب الجديدة ويعلمها للناس: **أحبوا بعضكم... وصية جديدة أعطيكم..** لقد أعطانا أغنية جديدة هي أغنية الحب. **أغنية القلب الواسع الكبير الذي يدخل فيه كل أحد..** لقد أحب الناس المسيح وأحبوا مبادئه الجديدة التي تختلف عن مبادئ اليهود المعاصرين له الذين كانوا منغلقين على أنفسهم يظنون أن الله لهم وحدهم فقط! وهم المؤمنون فقط وليس باقي الناس، ويظنون أن باقي الناس محرومون من الله وأنه لا نصيب لهم في الله، إنه حكر عليهم ووقف عليهم!

جاء المسيح وكَسر هذه الحواجز التي تفصل الله عن الناس.. الله لكل الناس يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون في أحضان إبراهيم (مت٨: ١١).

وهكذا خرج المسيح من أورشليم والسامرة وذهب شرقًا وغربًا إلى بلاد لم يفكر اليهود يومًا أن الله يقبلها، لكن المسيح جاء يحطم التقاليد الخاطئة التي صنعوها وانغلقوا بها... لقد ظنوا أن الله يدخل معهم في التحوصل. لقد قال الله: أنا أحب الكل... أحب الروماني، والمرأة الكنعانية، والسامرية، وكل إنسان له نصيب في قلبه. هذا هو المبدأ الجديد الذي قدمه المسيح في محبته... **الانفتاح على الكل.**

بهذا الشكل نطلب أن يكون كل إنسان منّا منفتحًا على غيره... كل إنسان يسأل نفسه... هل محبتي في دائرة ضيقة أم تتسع وتتسع حتى تصبح بغير أسوار ولا قيود؟

هل محبتي قاصرة على أسرتي وأصدقائي والناس في العمل والكنيسة أم محبتي لجميع الناس؟

نرجو أن نعيش في هذه الحياة المملوءة حبًا كما أحب المسيح الكل.

✞✞✞

الفصل الثاني

أهمية القلب

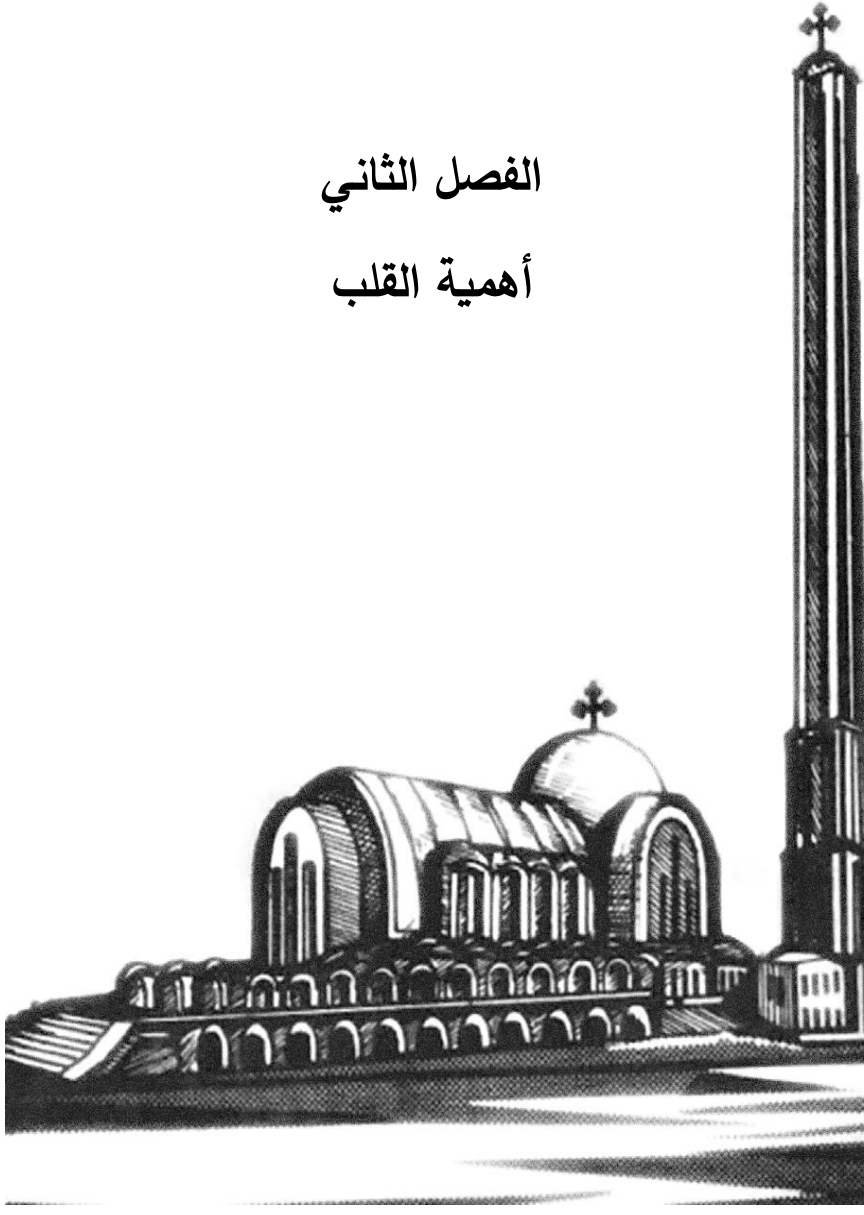

أهمية القلب

كما أن القلب مصـــــدر هام لحياة الجســـد، كذلك له أهميته في الحياة الروحية، وفي الحياة الاجتماعية في كل التعاملات مع الناس.

القلب هو مصدر لكلِّ الفضائل، وأيضًا مصدر لكلِّ الرذائل، فمنه يصدُر كل شــيء. وهو الذي يعبِّر عن حقيقة الإنســان، وعن خفاياه ونواياه. هو مركز المشاعر، ومركز العواطف، ومركز الحب.

لا بد من الاهتمام بالقلب لأن كل كلمة تتفوَّه بها صـــــادرة من القلب، "الإنسان الصَّالِحُ مِنَ الْكَنْزِ الصَّالِحِ فِي الْقَلْبِ يُخْرِجُ الصَّالِحَاتِ، وَالإنسان الشِّــرِّيرُ مِنَ الْكَنْزِ الشِّــرِّيرِ يُخْرِجُ الشُّــرُورَ" (مت١٢: ٣٥). يقول الرب: "بِكَلاَمِكَ تَتَبَرَّرُ وَبِكَلاَمِكَ تُدَانُ" (مت١٢: ٣٧).

اجعل قلبك هو القائد لك في كل فضـــيلة. وســـنرى الآن علاقة القلب بالمشاعر، وباللسان والفكر والإرادة، وعلاقته بالتوبة والعبادة وكل تفاصيل الحياة مع الله.

القلب مصدر المشاعر

القلب مصدر المشاعر، لذلك يقول الكتاب المقدس: "فَوْقَ كُلِّ تَحَفُّظٍ احْفَظْ قَلْبَكَ، لأَنَّ مِنْهُ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ" (أم٤: ٢٣). فالقلب إذا صلُح صلُحت حياة الإنسان، وإذا فسَد، فسَدَت حياته. وينطبق ذلك على سائر الفضائل.

فيه الحنو والطيبة، أو فيه القسوة والشدة. فيه الإيمان والثقة، أو فيه الشك وفقدان السلام. فيه التواضع والوداعة، وفيه الكبرياء والخيلاء. فالاتضاع ليس هو أن يقول إنسان بلسانه كلام اتضاع، كأن يقول: "أنا خاطئ وضعيف. أنا لا أستحق شيئًا"! فقد يقول هذا، بينما لا يحتمل مطلقًا أن يقول له أحد الناس: أنت خاطئ أو أنت مخطئ. **إنما التواضُع الحقيقي هو تواضُع القلب، أما الكبرياء فهي ارتفاع القلب أو تشامخ القلب. هي إذًا خطية داخل القلب، قبل أن تتَّخِذ أي مظهر خارجي.**

القلب أيضًا فيه الخوف، أو فيه الاطمئنان. أمرٌ واحد يحدث لاثنين: أحدهما يخاف ويرتعش ويتخيَّل له نتائجَ مرعبة، بينما الآخر يقابله بكل سلام وثقة في أنه سينتهي بخير، ويفكِّر في هدوء كيف يتلافى نتائجه السيئة. حسب قلب كل واحد من الاثنين، تكون مشاعره. إن القلب يشمل كل شيء فيك ومنك.

كل الخير الذي فيك مصدره القلب، وكذلك كل الخطأ.

كلمات لسانك نابعة من قلبك، لأنه من فيض القلب يتكلَّم اللسان، وكذلك أفكارك، إن كان في قلبك حب، يظهر الحب في معاملاتك، إن كانت في قلبك عداوة أو كراهية، يظهر كل ذلك في تصرفاتك، بل يبدو ذلك في لهجة صوتك، وفي نظرات عينيك. ومصدر كل ذلك هو القلب.

إلاَّ لو كان في القلب رياء أو نفاق ويُظهِر الإنســـان غير ما يبطِن وذلك أيضًا ينكشف.

القلب والفكر

القلب والفكر يعملان معًا، كل منهما سبب ونتيجة. **مشاعر القلب تسبب أفكارًا في العقل، والأفكار تسـبب مشـاعر في القلب.** إذا اشـتهى القلب خطية، فإن هذه الشـهوة تجلب للعقل أفكارًا من نوعها. وإذا فكر العقل في خطية، تنتقل إلى القلب مشاعرها وشهواتها.

إذًا إن أردت صــلاحًا لقلبك، اِبعد عن مصــادر الفكر الخاطئة، اِبعد عن الأفكـار التي تـأتيـك من القراءات الخـاطئـة أو من الحواس، أو من المعاشرات الرديئة، أو من مصادر أخرى. حينئذ لا تضـغط الأفكار على قلبك، وحينئذ تصــل إلى اســتقامة القلب وصــلاحه. إن الوجوديين الذين رفضوا الله بقلوبهم، دخلت أفكار الإلحاد إلى أذهانهم. الإلحاد إذًا قد يكون من القلب والفكر معًا. ربما تكون بينك وبين إنســـان محبة. ويأتي ثالث فيغيِّر فكرك من نحوه! تجد قلبك قد تغيَّر أيضًا من نحوه.

ومع تغيُّر قلبك، تتغيَّر أيضًا ملامحك وكلماتك ومعاملاتك!

وفي الناحية الدينية، تقول: أريد أن أعطي قلبي لله، أقول لك: أعطه فكرك أيضًـا، لأنه حسبما يكون قلبك، يكون فكرك. وحسبما يكون فكرك، يكون قلبك أيضًــا. ومكتوب في توراة موســى النبي: "فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ

قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ" (تث٦: ٥). **إن تجديد الذهن يجلب تجديد القلب.** إن دخلَت إلى ذهنك أفكار جديدة، اقتنَعْت بها وآمنْت بها، ستجد نفسك قد تغيَّرت تبعًا لذلك شكلًا وقلبًا. وتجد ضميرك قد سلك في نوعية جديدة يقود بها قلبك. وبتغيُّر الفكر والقلب، يتغيَّر أسلوب اللسان أيضًا. وكل هذا لا بد أن يؤثِّر على الإرادة.

القلب والإرادة

إذا ملأَت محبة الله قلب إنسان، فإنه لا يستطيع أن يخطئ. لأن محبته لله تسيطِر على تصرفاته، فتتجه إرادته نحو الله بالكلِّية. أما إذا كان القلب غير كامل في محبته لله، فإن إرادته تكون متزعزعة. تتصرَّف حسب التأثيرات الخارجية عليها، إن خيرًا وإن شرًا. **فإن كان كل القلب لله، تكون كل الإرادة لله.** أيضًا إن كان القلب يتميز بالجدية والتدقيق، والالتزام بالقيم والمبادئ، فإنه على حسب تمسكه بكل هذا تكون إرادته قوية. أما القلب المتقلِّب فتكون إرادته متقلبة. هناك ارتباط إذًا بين القلب والفكر، وبين القلب والإرادة، وبين القلب والفضيلة. وهناك ارتباط بين القلب واللسان.

القلب واللسان

من فيض القلب يتكلَّم اللسان. الإنسان الصالح، من كنز قلبه الصالح يتكلَّم بالصالحات. والإنسان الشرير مما يكنِزه في قلبه الشرير يتكلَّم بألفاظٍ

شـــريرة. من ثمارهم تعرفونهم. إلا لو كان الكلام رياء، وليس من القلب، أي أن يتكلم الإنســـان بغير ما في قلبه، أو بعكس ما في قلبه، وفي هذه الحالة إن قال كلمة طيبة بفمه، وقلبه عكس ذلك يحاسـبه الله على ما في قلبه، ويضاف إليه خطية الرياء أو النفاق.

الله الذي يحاســـبِك في اليوم الأخير، هو فاحص القلوب. وهو العارف بالمشـاعر والنيات. والكلام الليِّن وحده لا يأتي بنتيجة، إن لم يكن صـادرًا عن مشـــاعر حقيقية في القلب وإلاَّ فإنه ينطبق عليه قول المزمور: "أَلْيَنُ مِنَ الزَّيْتِ كَلِمَاتُهُ، وَهِيَ سُيُوفٌ مَسْلُولَةٌ" (مز٥٥:٢١).

قد تعتذر لإنسـان، فلا يقبل اعتذارك. لأنه يحس تمامًا أن كلماتك ليسـت صـــادرة من قلبك، وأنها مجرَّد كلام!! تتأسَّـــف له بلســـان. بينما نبرات صـــوتك ذاتها لا تعبّر عن أســف أو ندم! لأنها غير مختلطة بمشـــاعر القلب، رخيصـــة وغير مقبولة! والإنســـان الحســـاس اللمَّاح، يســـتطيع أن يكشف حقيقة الكلام، وهل هو صادر من القلب أم لا؟

ســـواء كان كلامك مديح، أو كلام اعتذار، أو كلام نُصـــح، فإن نبرات الصـوت تكشـفه، وملامح الوجه تكشـفه، وكذلك نظرات العينين. وما هو داخل القلب، يمكن إدراكه ومعرفته، ولا يمكن للألفاظ أن تخفيه.

الفصل الثالث

القلب والعمل الروحي

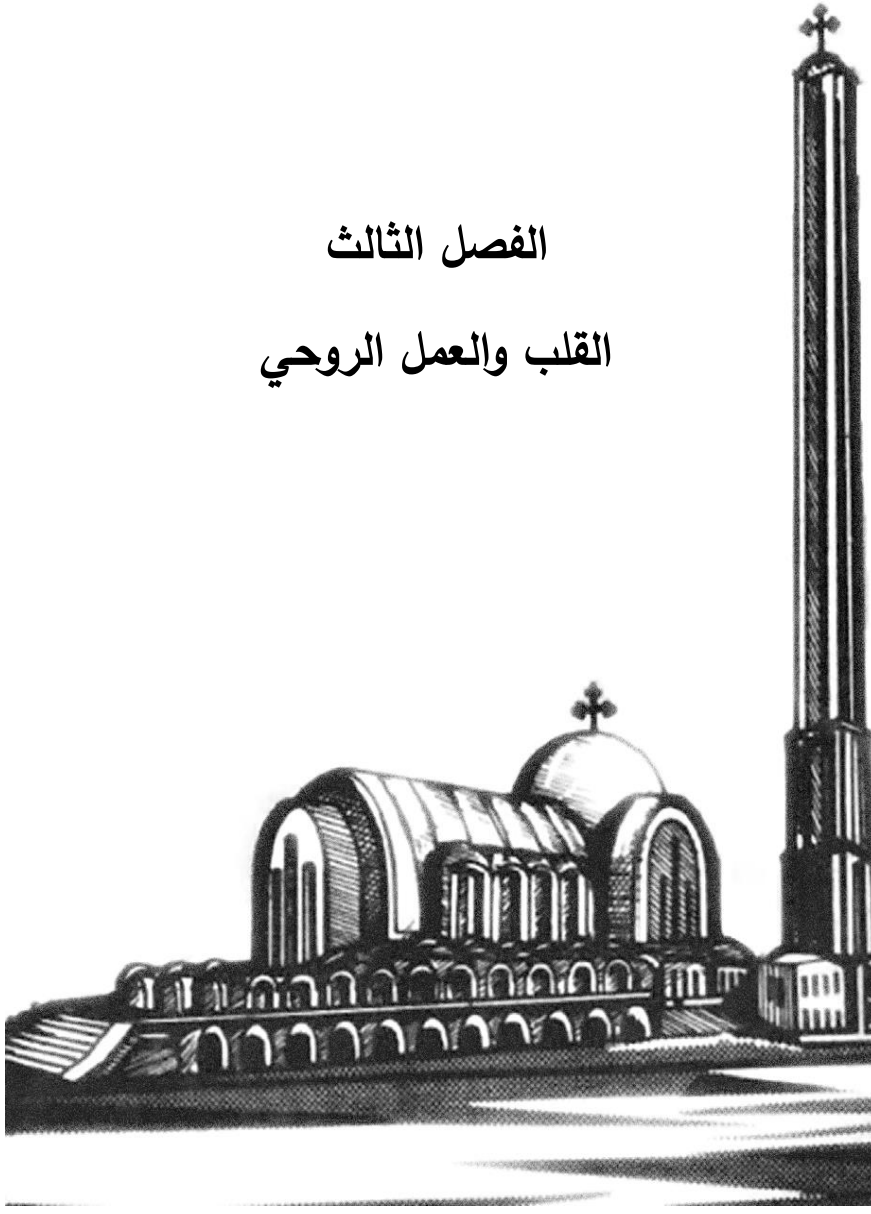

القلب والعمل الروحي

الحياة الروحية، ليست ممارسات في العبادة، أو فضائل ظاهرة، إنما هي حياة قلبية. حياة قلب يرتبط بالله بعلاقة حب، تنبع منها علاقة طاعة وخشوع. وكل ما يتَّصف به الإنسان من فضيلة وعبادة، إنما هو نابع من قلبه، ومن حب هذا القلب للخير.

فالحياة الروحية إذًا، ليست هي ممارسات من الخارج، ولا هي وصايا تُنفَّذ لأجل الطاعة. إنما هي قبل كل شيء حياة القلب مع الله.

القلب عمله الأساسي في الروحيات، ولعل في مقدمة ذلك عمله في التوبة، وعمله أيضًا في الفضائل، وعمله في العبادة.

القلب والحياة مع الله

يقول الرب: "يا اِبني أعطني قلبك". ويقول له الإنسان: مَن يا رب الذي يعطي الآخر؟ أنا أعطيك قلبي أم أنت تعطيني قلب من عندك. يقول داود النبى: "قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اَللهُ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي" (مز ٥١: ١٠).

المدهش والعجيب. أن الرب يستجيب، ويقول في سفر حزقيال: "وَأُعْطِيكُمْ قَلْبًا جَدِيدًا، وَأَجْعَلُ رُوحًا جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ، وَأَنْزِعُ قَلْبَ الْحَجَرِ مِنْ لَحْمِكُمْ وَأُعْطِيكُمْ قَلْبَ لَحْمٍ. وَأَجْعَلُكُمْ تَسْلُكُونَ فِي فَرَائِضِي" (حز ٣٦: ٢٦، ٢٧).

القلب والإيمان

إنســـان يردّد قانون الإيمان (بالحقيقة نؤمن بإله واحد. إلخ)، إنما الإيمان داخل القلب. **كان السيد المسيح يسأل في حالات طلب الشفاء: أتؤمِن؟!** وبطرس الرســول الذي لا يســتطيع أحد أن يقول إنه لا يؤمن بالمســيح، بدليل إنه تمشَّى معه على البحر، لكن عندما أتت الأمواج وهاجت، سقط. فالســيد المســيح جذبه إلى فوق قائلًا: "يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَــكَكْتَ؟" (مت ١٤: ٣١).

هنا الإيمان ليس مجرَّد عقيدة، الإيمان هو الإيمان العملي الذي يظهر في حياة الإنسان، إيمان من القلب.

تبدأ حياتك مع الله من قلبك

تبدأ بالإيمان، والإيمان من عمل القلب، بالإيمان تثق بوجود الله بصـــفة عامة، وبوجوده في حياتك بصــفة خاصــة، وفي حياتك معه تتَّكِل عليه، وفي اتِّكالك عليه، تسـلِّمه حياتك، حيثما يسـيِّرك تسـير، وكيفما يصـيِّرك تصير، يتبعه قلبك في كل شيء.

وتكمُل بعمل الفضـــيلة، والبعد عن الخطيئة. وكل ذلك من عمل القلب أيضًــا. فالإنســان الذي يحب الفضــيلة لا يخطئ. إن وصــايا الله في قلبه وفي فكره لا يملك أن ينساها.

فإن قال البعض إن هناك وصـــايا قد تبدو صـــعبة في تنفيذها، مثل الاحتمال ومغفرة الإساءة. نقول إن وصية الله تبدو صعبة علينا، إن كانت خارج قلوبنا، لم نُمزِجها بعواطفنا، ولم نشـعر بأهميتها. ولذلك إن أخطأنا، يكون السبب راجعًا إلى القلب أولًا وأخيرًا.

تجعل وصـــاياه في قلبك، وحســـب المحبة التي في قلبك نحو الله، لا تســـتطيع أن تُخطِئ، لأن الخطية هي انفصـــال عن الله، انفصـــال في المحبة، وانفصـال في المشـيئة، وانفصـال في العمل. وفي محبتك لله تود أن تكون معه في كل وقت، وفي كل مكان، هنا على الأرض، وأيضًـــا معه في السماء بعد الموت.

القلب والوصية

يجب أن تكون وصـايا الله في القلب. أحيانًا كثيرة ما تكون وصـايا الله في العقل وليس في القلب، فحواء عندما سألتها الحية عن الوصية، قالت: "لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا" (تك٣:٣).

فالوصـــية موجودة في العقل لكن ليس في القلب، وما أســـهل أن يحفظ الإنسان وصايا الله ولا تكون في قلبه. يقول داود النبي: "خَبَأْتُ كَلاَمَكَ فِي قَلْبِي لِكَيْلاَ أُخْطِئَ إِلَيْكَ" (مز ١١٩: ١١) **لم يقُل وضعت كلامك في ذهني لكن في قلبي يختلط بمشاعري وعاطفتي لكيلا أخطئ إليك.**

يقول أيضًا: "أَحْبَبْتُ وَصَايَاكَ أَكْثَرَ مِنَ الذَّهَبِ" (مز ١١٩:١٢٧). "وجدت كلامك كالشهد فأكلته"، "أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ لِفَمِي" (مز ١١٩:١٠٣). "وَصَايَا الرَّبِّ مُسْتَقِيمَةٌ تُفَرِّحُ الْقَلْبَ. أَمْرُ الرَّبِّ طَاهِرٌ يُنِيرُ الْعَيْنَيْنِ" (مز ١٩: ٨).

مَن يُحب الرب يُحب وصاياه. يجد لذة فيها، بالنسبة له الوصايا ليست فرضًا، وليست ثقلًا، إنما نور ينير له الطريق. "..سَبَّحْتُكَ عَلَى أَحْكَامِ عَدْلِكَ" (مز ١١٩:١٦٤). القلب المُحب لله حتى لو غفل عن الرب، قلبه معه! ما أجمل العبارة التي وردت في سفر النشيد: "أَنَا نَائِمَةٌ وَقَلْبِي مُسْتَيْقِظٌ" (نش٥: ٢).

القلب والعبادة

العبادة الحقيقية المقبولة من الله، هي التي مصدرها القلب وهي تتميَّز عن العبادة الشكلية المظهرية.

تلك العبادة الزائفة التي يقول عنها المثل العامي: "يصلِّي الفرض وينقُب الأرض". على أن العبادة الحقيقية للقلب ليست مجرَّد فرض، إنما صِلة حقيقية بالله تبدأ من القلب، وتستمر في القلب. مصدرها محبة القلب لله وإيمانه به، والعمل على مرضاته، وشهوة الوجود معه.

كذلك ذهابك إلى بيت الله: هل تشعر بشرف الوجود فيه؟ وهل تشعر بالخشوعِ اللائق به؟ وهل في داخلك تشكُر الله الذي سمح لك أن تدخل

إلى بيته على الرغم من كسرك لوصاياه. في كثير من المناسبات بهذه المقاييس كلها اِسأل نفسك عن نوعية عبادتك، كيف هي؟ وما علاقة القلب بها؟ وحاول أن كل علاقة لك بالله إنما تصدُر عن القلب.

القلب والصلاة

الصلاة وعلاقتها بالقلب: عندما تسأل البعض عن تعريف الصلاة، يرُد أنها الحديث مع الله، هذا تعريف قاصر، لا يفيد. الصلاة هي صِلة بالله، صِلة حُب وقلب، ونتيجة الحب والقلب نتكلَّم مع ربنا.

الصلاة غير المقبولة يقول عنها الرب: "هذَا الشَّعْبُ يُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا" (مر٧:٦) والذي قال عنه: "حِينَ تَبْسُطُونَ أَيْدِيَكُمْ أَسْتُرُ عَيْنَيَّ عَنْكُمْ، وَإِنْ كَثَّرْتُمُ الصَّلاَةَ لاَ أَسْمَعُ.." (إش١:١٥). تعني أن القلب ليس مع الرب وأنكم تخطئون.

الصلاة من القلب تكون كل كلمة يقولها الإنسان بفهمٍ وعاطفة. يصلّي: "وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أيضًا" (مت٦:١٢). وهو لا يغفر! يكذِب على ربنا في الصلاة. الصلاة المستجابة هي التي من القلب، هذه هي الصلاة التي يقبلها الله.

الصلاة ليست مجرَّد كلام تتلوه أمام الله، بل هي مشاعر قلب ينسكب أمام الله حتى بدون كلام!

مجرَّد خشـــوعك أمام الله، صـــلاة. كذلك مجرَّد رغبتك في أن تكون في حضرة الله، ورفع يديك إلى السماء، كقول المرتِّل في صلاته لله: "بِاسْمِكَ أَرْفَعُ يَدَيَّ، كَمَا مِنْ شَحْمٍ وَدَسَمٍ تَشْبَعُ نَفْسِي" (مز ٦٣).

ليس المهم في صـلاتك كلماتها وإنما مشـاعِرك، وليس المهم في الصـلاة طولها وإنما عمقها.

(الصـلاة) النابعة من القلب هي جسـرٌ واصِـل من الأرض للسـماء، بل الصـلاة هي مفتاح السـماء. كلمة (الصـلاة) في اللغة العربية هي أعمق من معناها في اللغات الغربية لأن منها يفُهم معنى (الصلة) بين الإنسان والله وإن لم تكن هذه (الصلة) موجودة لا تكون الصلاة صلاة.

والصـلاة هي صِـلة القلب بخالقه. والصـلاة ليسـت مجرَّد واجب روحي وإنما حب لله ومتعة في الوجود معه. والذي يملّ الصـــلاة إنما يقدِّم دليلًا عمليًا على خلو قلبه من محبته لله.

والصـــلاة هي رفع القلب إلى الله وليس مجرَّد رفع العينين أو اليدين إلى فوق. هي رفع القلب عن كل الماديات والأرضـــيات، لكي يتَّجِه إلى الله بكلِّ عواطفه، كمن يقول للرب في صلاته: "ليتني يا رب أنسى الكل لكي تبقى أنت وحدك في ذاكرتي"..

في ســـماءٍ أنت حقًا إنَّما .:. كلُّ قلبٍ عاش في الحبِ سماك
عرشُــك الأقدسُ قلبٌ قد خلا .:. من هوَى الكلِّ فلا يحوي ســواك

هي ذي العينُ لقد أغمضتُها .:. عن رؤى الأشياءَ علّي أن أراك
وكذا الأذنُ لقد أخليتُها .:. من حديثِ الناسِ حتَّى أسمعك

ليست الصلاة فقط، إنما كل الممارسات الدينية ينبغي قبل كل شيء أن تنبُع من القلب.

وفي الصلاة تكوّن علاقة مع الله. والصلاة ليست مجرد كلام مع الله، إنما هي مشاعر قلب نحو الله. لو كانت مجرد كلام، ما كان الله يقبلها. لأنه وبَّخ اليهود قائلًا: "يقترب إليَّ هذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُني بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا" (مت١٥:٨)!

الصلاة المقبولة هي الصلاة التي من القلب. هي مشاعر قلب ينسكب أمام الله، حتَّى من غيرِ كلام.

يقول داود النبي للرب في المزمور: "بِاسْمِكَ أَرْفَعُ يَدَيَّ، كَمَا مِنْ شَحْمٍ وَدَسَمٍ تَشْبَعُ نَفْسِي" (مز٦٣:٤،٥). مجرَّد رفْع اليدين! الصلاة هي بالحقيقة رفْع القلب إلى الله. أما صلاة الشفتين فقط – من غيرِ مشاعر القلب – فهي ليست صلاة مقبولة! الصلاة قبل كل شيء هي شعور بالوجود في الحضرة الإلهية. وهذا الشعور يرتبط به الخشوع، وكلاهما من القلب، ويظهران في الركوع وفي السجود، وفي الابتهال إليه. والصلاة هي اشتياق القلب إلى الله.

كما قال داود النبى في مزاميره: "يَا اَللهُ، إِلهِي أَنْتَ. إِلَيْكَ أُبَكِّرُ. عَطِشَتْ

إِلَيْكَ نَفْسِـي، يَشْـتَاقُ إِلَيْكَ جَسَـدِي" (مز٦٣:١)، "كَمَا يَشْـتَاقُ الإِيَّلُ إِلَى جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ، هكَذَا تَشْـتَاقُ نَفْسِـي إِلَيْكَ يَا اللهُ. مَتَى أَجِيءُ وَأَتَرَاءَى قُدَّامَ اللهِ؟" (مز٤٢:١،٢).

والصـــلاة التي من القلب، فيها الحرارة، وفيها الحب، وفيها الإيمان. وفيها مشاعر تَرفع القلب إلى السماء.

القلب وفضيلة العطاء

فضيلة العطاء على سبيل المثال، ربنا يقول: أعطِ العشور من احتياجك، لكن المهم: هل تُعطي من جيبك؟ أم من قلبك؟ العطيَّة من القلب تكون ظاهرة، عطيَّة بفرح وســرور "الْمُعْطِيَ الْمَسْــرُورَ يُحِبُّهُ اللهُ" (٢كو٩:٧). عطيَّة برضا في تواضع. تشعر فيها أن الله هو المُعطي هو الذي أعطاك ما تعطيه. وهو الذي يعطيك فضيلة العطاء لكي تعطي لغيرك فكله يرجع لربنا. "مِنْكَ الْجَمِيعَ وَمِنْ يَدِكَ أَعْطَيْنَاكَ" (١أي٢٩:١٤).

وهل تخلِط عطاءك للمحتاج بحبك له؟ وهل تفرح عندما تعطي لأنك أسعدت إنسانًا؟ أم تعطي عن تغصُّب؟!

إن الله لا يكافئك على مقدارِ عطائك، إنما على نوعِ مشــاعرك فيه. فهل تعطي كسخي يعطي لفقير؟ أم كإنسان يأخذ من الله ما يعطيه لرعية الله فما أنت غير موصِّل لتوصيل عطايا الله للناس!!

الله هو المعطي وأنت عبد المعطي. العطاء الحقيقي هو أن تعطي من قلبك، فيما تعطي من جيبك! فقلبك أولًا يمتلئ بمحبة المحتاجين والإشفاق عليهم. وبهذه المشاعر تقدِّم لهم العطاء المادي، وأنت توقِن تمامًا أن ما تعطيهم إياه هو حق من حقوقِهم عليك.

وأنه ليس من عندك، بل من عند الله الذي أعطاك ما تعطيه لهم. وهكذا تعطي بغير تعالٍ، وقلبك مملوء بالاقتناع، شاكر لله على عطائه لك ولهم. في قصة (حنانيا وسفيرة) لمحبتهِم للمال حجزوا جزءًا منه، أعطوا لكن عطاءهم غير مقبول! لأن قلبهم كان في ناحية وعطائهم كان في ناحية أخرى.

القلب والتوبة

كثيرون يعتقدون أن التوبة أن يأخذ الإنسان (الحِل) بعد سرد الخطايا، وينتهي الأمر.. التوبة هي عمل الله في القلب، واستجابة القلب لعمل الله فيه. في سفر إرميا النبي يقول: "تَوَّبْنِي فَأَتُوبَ، لأَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ إِلهِي" (إر ٣١: ١٨).

التوبة هي رجوع إلى الله. يقول ارجعوا إليَّ فارجِع إليكم. "ارْجِعُوا إِلَيَّ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ" (يوئيل٢: ١٢). هناك مَن يرجِعون، لكن ليس مِن القلب.. يتأرجح يوم مع الله، ويوم مع الخطيئة. مَن يرجع كلية لا يرجع إلى

الخطيئة، حيث لا مكان لها عنده، ولا تكون هناك خطيئة محبوبة له. لا تكون التوبة من الظاهر، ولكن من القلب في الداخل، والرجوع إلى الله يكون رجوعًا كاملًا. التوبة تعني: هل تغيَّر قلبك؟

هكذا الصوم أيضًا، ليس الصوم مجرَّد تغيير طعام، أو تحديد موعد للأكل، ما أسهل هذه الشكليات. يتفنَّن فيها الناس.

الصوم معناه أن يكون القلب زاهد في الداخل وتائب، ففي صوم أهل نينوى لما الله رأى أنهم تركوا أعمالهم الرديئة، ندم الرب على الشر الذي كان يريد أن يعمله بهم فلم يعمله. يعني كان صومًا مصحوبًا بالتوبة، وصومًا مصحوبًا بالصلاة، مصحوبًا بمحبة ربنا في زهد.

الصوم هو ضبط النفس من الداخل، التي تعني ضبط القلب. هكذا في التعامل مع جميع الناس. مشاعر قلبك في الاحتمال، في التصالح، في الصفح عن الآخرين، **قلبك في القُبلة المقدسة** "قبِّلوا بعضكم بعضًا بقبلة مقدسة"، لا يتفق مع المثل القائل "اللي في القلب في القلب" ليست مظاهر وشكليات في تعاملك مع الآخرين.

نتناول الخدمة مثلًا، ليست الخدمة مجرَّد نشاط قد يكون عملًا مستمرًا ليل نهار، لكن ليس للقلب دخل فيه. الخدمة الحقيقية هي أن تُحب الناس من قلبك، تُحب خلاصهم، وتقودهم إلى هذا الخلاص بدافع المحبة. تُحبهم فتُحب أن يكون لهم أبدية سعيدة.

التوبة الحقيقية هي رجوع القلب إلى الله، هي تغيير القلب من الداخل، أي تغيير شـــهوات الإنســـان الداخلية. لأنه ما دامت في القلب خطيئة محبوبة لا يكون قد تاب توبة حقيقة، حتى لو كان لا يقرن هذه الخطية بالفعل! فالله يريد أن يرجع الناس إليه بكل قلوبهم.

فخطيئة الجســـد أو خطايا الحواس هي الثانية في الترتيب الزمني، فإن نقَّيت القلب، تتنقَّى الحواس، ويكون الجسد طاهرًا.

وإن انتصـــر الإنســـان في الداخل على الخطايا التي تحاربه فإنه بالتبعية ينتصـــر من الخارج أيضًـــا. وهكذا فإن التوبة التي من القلب، هي التوبة التي تتحكَّم في الحواس وفي كل المظاهر الخارجية.

والانتصـــار على الخطايا بالضـــرورة يأتي من الداخل وهذا ما يجب أن يركِّز عليه الوعَّاظ والمعلمون.

إن التغيير الخارجي، لا يأتي إلا بالتجديد الداخلي، أي بذهن يفكِّر بطريقة جديدة ينفعل بها القلب ومشـــاعره. ومهمَّة الواعظ أن يتعامَل مع قلوب الناس وأفكارهم، وليس مع آذانهم وحدها. يركِّز على المظاهر الخارجية وحُسن السلوك من الخارج.

التوبة الحقيقية هي التوبة الصـــادرة من أعماق القلب وليســـت التوبة الصـــادرة عن مجرد الإرادة؛ لأن الإرادة قد تقوَى حينًا وترفض الخطيئة ثم تضـعف حينًا آخر، وتحنُّ إليها. قد تمتنع الإرادة عن فعل الخطيئة، ولكن

– مع عدم ارتكابها – تبقى محبتها في القلب، وبهذا لا تكون توبة حقيقية.

إن التوبة الكاملة هي كراهية الخطية وهي من عمل القلب.

لأنه إن كانت توجد في القلب خطية محبوبة – ولو أن الإرادة ترفضها – فلا تسمّى هذه توبة إنما هذه محاولة للوصول إلى التوبة. أما التوبة فهي أن يرجع الإنسان إلى الله بكل قلبه، ولا يشتهي في داخله شيء ضد وصايا الله وضد الحياة الطاهرة النقية. وبالوصول إلى الناحية الإيجابية يعمل الشخص على أن يحب الله من كل قلبه، ويقول كما في المزمور: "بِكُلِّ قَلْبِي طَلَبْتُكَ.." (مز ١١٩: ١٠).

التوبة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنقاوة القلب، والتوبة التي من القلب هي التي تستمر. التوبة ليست كلمة نقولها بألسنتنا، وليست وعودًا نعِد بها الله في لحظةِ يقظة روحية ثم نعود فننساها!! إنما التوبة الحقيقية هي تغيير حقيقي للقلب. وكأن الإنسان قد وهبه الله قلبًا جديدًا. وهي أيضًا تغيير أساسي في شهوات الإنسان الداخلية. وكما قال أحد الآباء: التوبة هي استبدال شهوة بشهوة.

فتحلُّ شهوة الخير والفضيلة محلَّ شهوة الشر والدنس. وليست التوبة مجرد امتناع خارجي عن الخطيئة بينما هي ترعى في القلب وتنجِّسه! تبعُد عنها الإرادة مضطرة في تغصب! بينما يشتهيها القلب من الداخل

وكما قال أحد معلمي الفضيلة: "قد يوجد البعض لهم أجساد عفيفة، لكن قلوبهم دنسة"!

للوصول إلى التوبة، ينبغي أن ينتصر القلب في الداخل، ويكون نقيًا زاهدًا في الأمور الخاطئة، حينئذ ينتصر من الخارج.

تقول: إنني للأسف الشديد أحيا في بيئة بها الكثير من المغريات والعثرات والحروب الروحية التي يسهُل معها السقوط. أقول لك: **إن كان قلبك منتصرًا من الداخل فلا يمكن أن يؤثِّر عليه كل هذا.** إن يوسف الصديق المنتصر في داخله لم تقوَ عليه العثرات ولا المغريات ولا الحروب الروحية في شدَّتها. أتقول: فلان طبعه مُتعِب، لقد نرفزني وأثارني وأفقدني هدوئي. فأرد عليك: بل كان الأولَى بك أن تقول: إن فلان كشف لي الخطأ الموجود في قلبي. لأنه لو كان قلبي قويًا ما كنت أقع في النرفزة! لقد أظهر لي بعض ضعفاتي لكي أتوب عنها.

إن العثرات الخارجية تؤثِّر وتقود إلى الخطيئة إن كان القلب يستجيب لها. أما إن كان القلب يرفضها، فهذه العثرات لا تُعثِره هو بل قد تُعثِر غيره. كذلك الكلام الروحي عن التوبة قد لا يأتي بنتيجة إن كان القلب لا يريده، وبالأكثر يرفضه، بسبب محبة خاطئة يتعلَّق بها من داخل القلب.

إذًا الانتصار على الخطيئة إنما يأتي من الداخل. مهما دقَّق الواعظ على اجتناب المظاهر الخارجية الخاطئة فلن يُجدي ذلك نفعًا ما لم يأتِ

الإصلاح من الداخل.

تقول لإحدى الفتيات مثلًا: ملابســـك، شـــكلك، زينتك، مكياجك. وتظل تؤنِّب وتوبِّخ. ولكنها لن تغيِّر شـــيئًا من كل هذا.. ما لم يتغيَّر القلب من الداخل وتتغيَّر المبادئ ثم تتغيَّر الســلوكيات. حقًا إن التغيير الخارجي لا يأتي إلا بالتجديد الداخلي: بذهنٍ يفكِّر بطريقةٍ جديدة روحية ينفعِل بها القلب ومشـاعره. أولى بنا في الوعظ والإرشـاد أن نتفاهم مع قلوب الناس وعقولِهم وليس مع آذانِهم فقط نقول لهم: "تَغَيَّرُوا عَنْ شَـــكْلِكُمْ بِتَجْـدِيـدِ أَذْهَانِكُمْ" (رو١٢: ٢). إننا كثيرًا ما نركِّز على خطايا اللســـان، وخطايا الحواس والعمل، دون أن نركِّز على مصدرها الذي هو القلب!!

إنســـان يحتدّ ويثور ويتلَّفظ بما لا يليق فننصـــحه بأن يبعد عن خطايا اللســان، دون أن ننصــحه بأن يغيِّر ما في قلبه، لكي يكتســب فضــائل الوداعـة والهدوء والاحتمـال، ومحبـة الآخرين. ذلك لأنـه إن كـانـت هذه الفضائل في قلبه، فلن يخطئ مطلقًا بلسانه ولن يحتد أو يثور.

إنسان يثور على ملابس المرأة، ويقول: إنها توقعني في الشهوة!

بينما الذي يوقِعه في الشـــهوة هو قلبه، وأيضًـــا فِكره من جهة المرأة والجســـد. فلو كان قلبه نقيًا من جهة المرأة ما كانت شـــهوة من جهتها تتحرَّك في قلبه! فليت الوُعّاظ كما ينتقدون ملابس النســـاء، إنما يركزون أيضًا على مشاعر الرجال وشهواتهم، وصَدَق الشاعر الذي قال عن امرأة

خاطئة:

ودَعوكِ بائعة الأثيم من الهوى .:. كذِبوا فإن الذنبَ ذنبُ المشتري

إن خطيئة الزنا مصــدرُها هو القلب قبل أن تصــل إلى شــهوة الحواس، وشـهوة الجسـد. فخطيئة النظر هي أولًا خطيئة القلب، ولو كان القلب نقيًا ما كان ينظر نظرة شــهوانية. كذلك نظرة الحِقد، تأتي من الحِقد الذي في القلب. ونظرة القسوة تأتي من قسوة القلب. وكذلك نظرة الكبرياء، وهكذا.

القلب والعمل الإيجابي

تكلَّمنا عن الخطأ في مشــاعرِ القلب ويعوِزنا أن نتكلَّم عن عمله الإيجابي في الفضــيلة. فالقلب مصــدرُ كلَّ الحماس، وكلَّ دعوة للخير، وكلَّ غيرة مقدسة.

كلُّ محبة الناس وخدمتهم، وكلُّ عملٍ لإنقاذهم من كل ورطة وقعوا فيها، كلُّ هذه هل نضعها تحت عنوان الخدمة الاجتماعية؟

أم نقول إن القلب مصــدرها والداعي إليها؟ وإن لم تكن صــادرة من القلب تتحوَّل إلى روتين ولا تُعدّ فضيلة، وهنا نفرّق بين الخدمة الملتهبة الصادرة عن القلب وخدمة الموظف الرسمي في المجال الاجتماعي. في هذا نميّز أيضًــا بين الكاتب الذي يدافع عن الحق باقتناع قلبي وإيمان بالخير وبين كاتب آخر يكتب من ناحية نظرية.

ما أعظم الفرق أيضًا بين السلوك الفاضل النابِع من حبِّ الفضيلة ومحبة الله، وبين من يسلُك حسنًا لمجرد إطاعة القانون!

سواء كان يؤمِن بهذا القانون أو لا يؤمِن. ينبغي أن تكون محبة الغير ومحبة الخير هي مصدر لكلِّ عمل صالح. بهذا يكون الصلاح صادرًا عن القلب وليس عن إرادة، تحت ضغط خارجي يقودها إلى التنفيذ مرغَمة.

إن الاستشهاد.. وهو أرفع درجات البذل كان صادرًا عن إيمان مصدرُه القلب قبل أن يكون تعذيبًا للجسد أو قتله.

كذلك فإن الطاعة بكلِّ أنواعها إن كانت صادرة من القلب، يكون لها معنى أسمى بكثير من الطاعة الخارجية عن اضطرار.

ننتقل إلى نقطة أخرى وهي: **قلبك هو السبب**

قد تقول "فلان قد ضيَّعني". فأقول لك: "لم يضيِّعك سوى قلبك".

لو كان قلبك قويًا، غير قابلٍ للضياع، ما استطاع هو أن يضيِّعك! ثم إن هذا الشخص لا يمكنه أن يحاربك إلا من الخارج. فإن كنت من الداخل سليمًا. فلن يضرَّك في شيء.

انظر إلى الجنادل الستة التي تعترض النيل في منطقة النوبة. إن المياه تصدمها من آلاف السنين، ولا تستطيع أن تزحزِحها من مكانِها، أو تفتِّتها، لأنها صخورٌ قويَّة. فلتكن أنت هكذا إن كنت قويًا. صدق ذلك

الحكيم الذهبي الفم حينما قال: "لا يستطيع أحد أن يؤذي إنسانًا ما لم يؤذِ هذا الإنسان نفسه".

قد تقول: الكلام الذي سمعته، غَيَّر أفكاري وشكَّكني!

أقول لك: هو قلبك القابل للتشـــكيك. فلو كنت ثابتًا في قلبك، قويًا في إيمانك وفكرك، ما كان الشـــك يدخل إليك مهما ســـمِعت من كلام. إن الضعيف الإيمان هو الذي يشك.

أتقول: إن الضـــيقات قد زعزعتني؟! أقول لك: لو كان قلبك قويًا. ما كان يتزعزع.

كثيرًا ما قلت: "إن الضيقة سُمِّيَت ضيقة، لأن القلب ضاق عن أن يتسع لها". أما القلب الواسع فلا يضيق بشيء. القلب الواسع يتناول المشكلة بهدوء ويحَلِّلها. فإن اســـتطاع أن يحلَّها، انتهى الأمر. وإلا فإنه يعطيها مدىً زمنيًا تُحلّ فيه. أو يتركها إلى الله فيحلَّها له.

✞✞✞

الفصل الرابع

صفات القلب وأنواعه

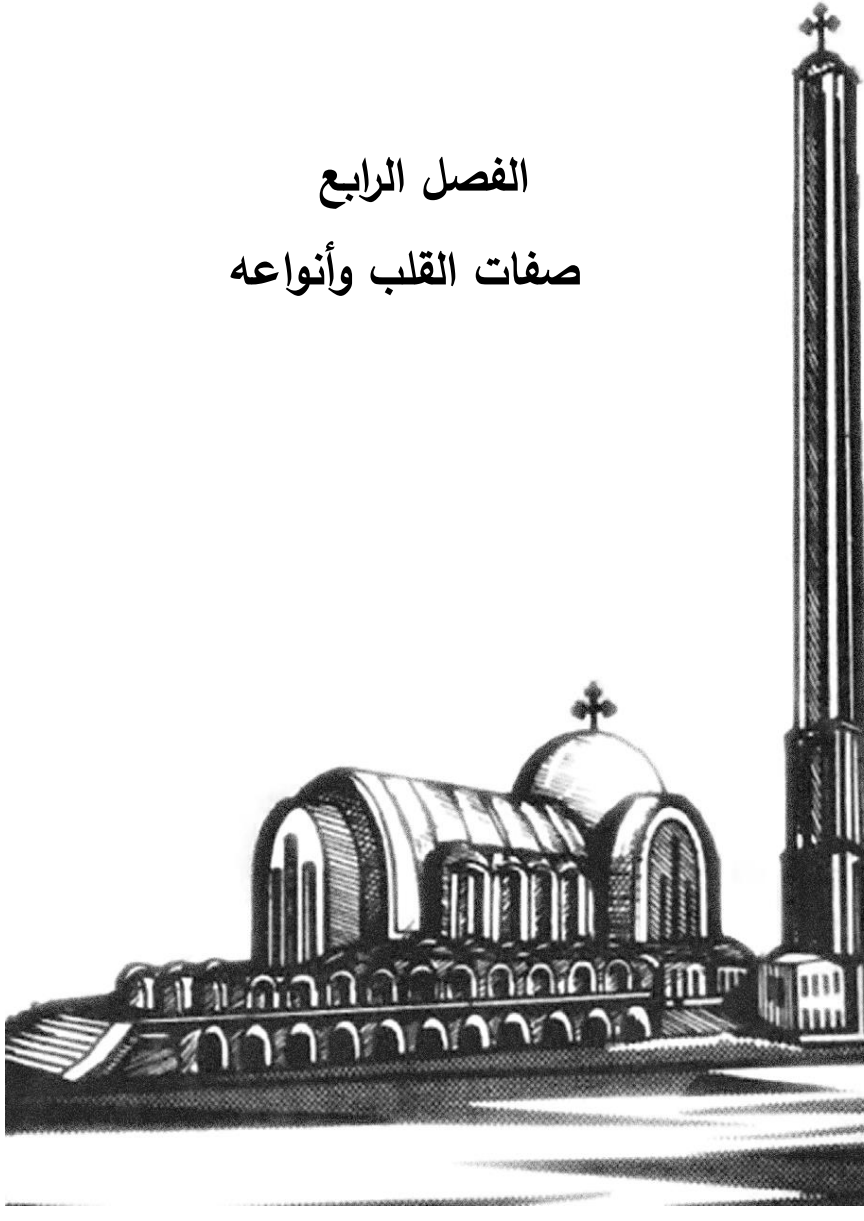

صفات القلب وأنواعه

يوجد قلب قوي، لا ينهار ولا يضـــعف مهما كانت التجارب، وقلب نقي طاهر، لا يسقط مهما كانت الإغراءات.

كما يوجد قلب صامد، يظل ثابتًا مهما طال زمن المشكلة. وقلب متواضع يحتفظ باتضـــاعه مهما نال من رفعة المناصـــب، ولا يتأثر إطلاقًا بكلام المديح أو الكرامة. إذًا الأهمية هي في نوعية القلب.

١- القلب المتواضع

التواضـع ليس مجرد كلام إنما هو تواضـع القلب. ما أسـهل أن يقول: أنا خاطئ. أنا ضعيف، لكن إذا قيل له: أنت خاطئ، يثور ويغضب!

قيل عن القديس الأنبا ســرابيون الكبير، أن ذات مرة جاء إليه أحد الإخوة "الجوالين"، فقال له الأنبا سرابيون الكبير: هيا بالصـلاة معي، فأجابه: أنا خاطئ. لا أســتحق الصـــلاة. وعرض عليه أن يأكل معه فرفض لنفس السبب، ويبادر بالرد بعدم استحقاقه.

فأجابه الأنبا سرابيون: "الأفضـل أن تظل في قلايتك، فليس التواضـع أن تلوم نفسك. بل التواضع أن تقبل الملامة التي تأتيك من الآخرين دون أن تضطرب!".

كذلك ما يتصـــل بالمطانيات والأعذار. أحدهم يضـــرب مطانية لآخر، قائلًا: ســـامحني. ولا تُقبل منه؛ لأنها ليســـت صـــادرة من قلبه. كذلك الاعتذار، هناك فرق بين الاعتذار من القلب، فيُقبل اعتذاره، وآخر اعتذاره مجرد كلام لا يقبله أحد لأنه ليس صادرًا من القلب.

٢- القلب الصالح

الصـلاح ليس الصـلاح الخارجي، كقبور مُبيَّضـة من الخارج، ليس مجرد مظاهر إنما هو حالة القلب. ليس مجرد خوف أو خضوع. هو عاطفة من القلب.

الحشـمة ليسـت أمر يتعلق بالملابس والزينة، إنما الحشـمة داخل القلب يتصرف صاحبها التصرف السليم دون أهمية لمظاهر خارجية، والكثيرون يهتمون بالمظهر الخارجي لكن الله يريد القلب.

يقول: "يَا ابْنِي أَعْطِنِي قَلْبَكَ.." (أم٢٣:٢٦). فأي قلب يُعني؟! قلب نقي. قلب حكيم. قلب بسيط. قلب مليء بالحب.

لذلك يقول: "تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ.." (تث٦: ٥). لا يكون داخل القلب منافس للرب سواء كان هذا المنافس شخص أو خطيئة. تحب الرب إلهك من كل قلبك، وليس بجزءٍ من قلبك والجزء الآخر لآخر غير ربنا!

القلب يكون بسيط في شفافيته. ما في القلب على اللسان.

٣- القلب النقي

القلب النقي هو قلب صادق. فالمرائين قلبهم شيء، ولسانهم شيء آخر. يتكلَّمون عن الصالحات، وهم أشرار. يتكلَّمون عن الحب، وهم كما يقول المزمور: "أَسْنَانُهُمْ أَسِنَّةٌ وَسِهَامٌ، وَلِسَانُهُمْ سَيْفٌ مَاضٍ" (مز٥٧: ٤).

هذا القلب النقي يقول عنه الكتاب: "طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ" (مت٥: ٨).

هذه النقاوة مقياسها كبير ودرجاتها متفاوتة...

"يَا ابْنِي أَعْطِنِي قَلْبَكَ، وَلْتُلاَحِظْ عَيْنَاكَ طُرُقِي" (أم٢٣: ٢٦). عندما تعطِني قلبك، فإنك ستحفظ وصاياي. لذلك فعندما أعطى الرب الوصية لموسى النبي قال: "وَلْتَكُنْ هذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ وَقُصَّهَا عَلَى أَوْلاَدِكَ، وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ" (تث٦: ٦، ٧).

٤- القلب الكبير

القلب الكبير هو القلب المملوء بالتسامح والعفو، وهو أيضًا القلب الهادئ العامر بالسلام والطمأنينة.

القلب الضيق يتأثر بسرعة، ويندفع إلى الانتقام لنفسه.

لذلك كن كبيرًا في قلبك، وواسع الصدر. بحيث تحتضن في داخلك جميع المسيئين إليك.

وحينئذ ستشعر بالسلام الداخلي وتُدرِك بركةَ القلب الكبير. القلب الكبير لا تُتعبه إساءات الناس ولا يقابل الإساءة بإساءة. إنما تذوب جميع الإساءات في لُجة احتماله في خِضمِّ محبته.

القلب الكبير أقوى من الشر.

فالخير الذي فيه أقوى من الشر الذي يحاربه. ودائمًا الخير الذي فيه هو الذي ينتصر. ومهما أُسيء إليه، يبقى كما هو دائم المحبة للناس مهما صدر منهم.

في إساءتهم إليه لا ينتقم منهم بل على العكس قد يعطف عليهم! يراهم مساكين قد غلبهم الشر الذي يحاربهم، فهم محتاجين إلى مَن يأخذ بأيديهم وينقذهم من الشر الذي خضعوا له في إساءتهم لغيرهم.

أما إذا انتقم الإنسان لنفسه، يكون الشر حينئذ قد غلبه، وأخضعه لحب الانتقام، وأضاع من قلبه الاحتمال والتسامح والمودَّة.

إن محبتنا للناس توضع تحت الاختبار حينما نتعرض لإساءتهم: فكل إنسان يستطيع أن يحب من يحبه، وأن يحترم من يحترمه، ويكرم من يكرمه، كل هذا سهل لا يحتاج إلى مجهود. **ولكنه نبيل هو الإنسان الذي**

يحب من يكرهه، ويكرم من يسيء إليه!

وفي هذا يقول السيد المسيح في موعظتِه على الجبل: "لأَنَّهُ إِن أَحبَبتمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَكم، فَأَيُّ أَجرٍ لَكم؟ وَإِن سَلَّمتم عَلَى إِخوَتِكم فَقَط، فَأَيَّ فَضل تَصنَعونَ؟ أَلَيسَ العَشَّارونَ أيضًا يَفعَلونَ هكَذَا؟ وَأَمَّا أَنَا فَأَقول لَكم: أَحِبُّوا أَعدَاءَكُم. بَارِكُوا لاَعِنِيكُم. أَحسِنُوا إِلَى مُبغِضِيكم، وَصَلُّوا لأَجلِ الَّذِينَ يُسِيئونَ إِلَيكم وَيَطردونَكم" (مت٥: ٤٤-٤٧).

هنا ولا شك أن المحبة تكون بلا مقابل. أي أن الإنسان المُحِب لم يأخذ محبة في مقابل محبته. لم يأخذ أجرًا على الأرض.

لذلك يكون كل أجره محفوظًا في السماء، إذا لم يستوفِ منه شيئًا على الأرض. إن القلب الكبير ليس تاجرًا، يعطي حبًا لمن يقدِّم له حبًا، أو يعمل خيرًا مع الذي ينقده شاكرًا!

إنه يصنع الخير مع الكل بدون مقابل. يعمل الخير لأن هذه طبيعته. لذلك فإنه يعمل الخير لمن يستحقه، ولمن لا يستحقه أيضًا، مع المحب ومع المسيء، مع الصديق ومع العدو.

مثل الشمس التي تشرق على الأشرار والأبرار، ومثل السماء التي تُمطِر على الصالحين والطالحين. بل إنه درسٌ نتعلَّمه من الله نفسه الذي يُحسِن إلينا حتَّى ونحن خطاة!

إن القلب الكبير لا يعامل الناس كما يعاملونه إنما يعاملهم حسب سموّه وحسب نبله.

وهو لا يتغير في سموّه وفي نبله طبقًا لتصرفات الناس أمامه إنه لا يرد الإساءة بالإساءة، لأنه لا يحب أن تصدر منه إساءة إلى أحد ولو في مجال الرد. أما الضِعاف فإنَّهم يتأثَّرون بصفات الناس ويتغيَّرون تبعًا لها. وهنا نسأل: ما معنى رد الإساءة بالإساءة ومقابلة الخطأ بالخطأ؟؟

لقد أجاب الآباء القديسين على هذا الأمر وشرحوه في جملة نقاط لا مانع من أن نوضِّحها:

١- هناك إنسان يرد الإساءة بمثلِها: التصرُّف بالتصرُّف، والإهانة بالإهانة، والشتيمة بالشتيمة. وقد يرى في نفسه أنه يتصرَّف بعدل ولم يخطئ لأن هناك من يردّون الإساءة بأشد منها، ويعلِّلون ضمائرهم بأنهم في موقف المعتدَى عليه.

٢- وهناك نوعٌ لا يرد الإساءة بمثلها: فلا يقابل إهانة بإهانة، ولا شتيمة بشتيمة. ولكن الرد يظهر في ملامحه: في نظرة احتقار أو تقليب الشفتين بازدراء أو في صمت قاتل.. إلخ.

٣- وقد يوجد من لا يفعل شيئًا من هذا ولكن رده يكون داخليًا في قلبه، وفي نيته، ويتصوَّر في قلبه تصرفات تحمل معنى رد الإساءة بمثلها أو

بأشد ولكنها مخفاة.

٤- ويوجد إنسان قد لا ينفعل في الداخل من الإساءة. ولكنه إذا سمع أن المسيء قد أصابه مكروه يفرح بهذا الخبر! ويرى أن الله قد انتقم له ممن أساء إليه. وبهذا لا يكون قلبًا نقيًا تجاه المسيء بل يكون متعكِّرًا بشيءٍ من الشماتة!

٥- وقد يكون إنسان لا تحاربه هذه المشاعر، بل قد يحزن حقًا إذا حدث مكروه لمن أساء إليه، ولكنه في نفس الوقت لا يفرح إن سمع أنه حدث خير لهذا المسيء. إذ يرى أنه لا يستحق الخير وبهذا يتضايق لأيَّة أخبار مُفرِحة عنه، ولا يكون قلبه نقيًا من جهته.

٦- إنسان آخر قد لا يفعل شيئًا من هذا كله. ولكن إساءة المسيء تظل عالقة بذهنه لم ينسها لأنه لم يغفرها بعد. هذا أيضًا لم يصل بعد إلى مستوى القلب الكبير المحب الذي ينسى الإساءة ولا يعود يذكرها. لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا. ولأن القلب الذي ينسى الإساءة يكون صافيًا لا يعكره شيء.

٧- وقد يوجد شخص ينسى الإساءة ويستمر في نسيانها زمنًا، ثم تحدُث إساءة جديدة من نفس الشخص فيرجع ويتذكر القديمة أيضًا، التي خُيِّل إليه أنه قد نسِيها، ويتضايق بسبب الاثنيْن معًا.

وبهذا يدل على أنه لم يغفر الإساءة القديمة. وأنها لم تمُت في قلبه، وإنما كانت نائمة واستيقظت مثل جُرحٍ قد يكون اندمل ولكن موضعه ما زال حساسًا أقل لمسة تؤذيه!

إن هناك طريقتيْن لمواجهة الإساءة: طريقة التصريف وطريقة الترسيب:

أما **طريقة التصريف** فهي الطريقة الروحية التي بها يصرف الإنسان الغضب بأسلوب سليم، بإنكار الذات، بلوم النفس، بأن يعذر الآخرين بدافع من المحبة والبساطة.

أما **طريقة الترسيب** فهي أن يبدو الشخص صافيًا بينما يكون الغضب مترسبًا في داخله، كالدواء الذي يقال في استعماله (رُج الزجاجة قبل الاستخدام)، يبدو صافيًا من فوق بينما هو مترسِّب في الأسفل وأقل رجَّة تعكِّر السائل كله الذي يملأ الزجاجة. إن الصفاء الظاهري من فوق ليس هو صفاءً حقيقيًا كاملًا.

ولكن لعل إنسان يقول: كيف يمكننا الوصول إلى هذه الدرجات الروحية من صفاء القلب تجاه الإساءة؟ ألاّ تبدو غير ممكنة؟

إنها تبدو صعبة أو غير ممكنة بالنسبة إلى القلوب الضيِّقة التي لم تمتلئ بالمحبة بعد، ولا بالاتضاع، أما القلب الكبير فإنه يتَّسِع لكل شيء، إنه لا يفكِّر في ذاته، ولا في حقوقه، بل يفكِّر دائمًا في راحة الآخرين وفي

علاجهم، لذلك لا تهزَّه الإساءات.

كذلك هو يعلم أن المسيء إنما هو يسيء إلى ذاته – قبل كل شيء – لا إلى غيره. إن الذي يقترف الإساءة إنما يسيء إلى مستواه الروحي وإلى نقاوة قلبه وإلى مصيره في الأبدية، ولكنه لا يستطيع أن يضر غيره ضررًا حقيقيًا. فالذي يشتم غيره مثلًا، إنما يبرهن على نوع أخلاقياته هو، دون أن يضر المشتوم في شيء. يبقى المشتوم في مستواه العالي، لا تقلِّل الشتيمة من جوهر معدنه الكريم، بل تدل على خطأ مقترِفها، وسوء مستواه كإنسان شتَّام.

والذي أصابته هذه الإهانة – إن كان قلبه نقيًا كبيرًا – فإنه لا يتأثَّر، بل يأخذ موقف المتفرِّج الذي يرثي لضعفات غيره، لا موقف المنفعل أو موقف المنهزم.

وهكذا تبدو أمامنا درجات روحية لمواجهة الإساءة وهي:

احتمال الإساءة، ومغفرة الإساءة، ونسيان الإساءة، حسب المثل الإنجليزي: "NOT ONLY TO FORGIVE BUT RATHER TO FORGET". ثم درجة أعلى، وهي محبته لمن يسيء إليه. ففي أي درجة من هذه كلها تضع نفسك أيها القارئ العزيز؟ درِّب نفسك على هذه الدرجات الروحية لكي تصل إلى صفاء القلب ونقاوته، وإن لم تستطع أن

تصل إلى هذه كلها. فعلى الأقل لا تبدأ بالإساءة إلى غيرك.

خذ موقف المظلوم لا موقف الظالم، واعلم أن الله سـيقف إلى جانبك. أما الظالم فإنه يعادي الله قبل أن يعاديك، وسيكون الله ضده، وعندما يقف الله معك ضد ظالميك، قل له كما قال السيد المسيح: "يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ" (لو٢٣: ٣٤).

القلب الكبير الذي يحتمل ضـعفات الآخرين يعيش باسـتمرار في سـلام، بعيدًا عن الغيظ وعن الحقد، كل ضيقات العالم لا تزعجه.

إنه يسـتمد سـلامه من الداخل وليس من الظروف المحيطة. حقًا إنه ليس من صالح الإنسان أن يجعل سلامه القلبي يتوقَّف على سبب خارجي: إن اضطربت الأمور من حوله اضطرب معها وإن هدأت يهدأ، سبب خارجي يجعله يثور، وسبب يجعله يفرح، وسبب يبكيه، وسبب يبهجه، ويكون كما قال الشاعر:

كريشة في مهبِّ الريحِ طائرة .:. لا تسـتقِر على حالٍ من القلقِ

القلب الكبير – في كلِّ ما يحدث له – يكون أقوى من الأحداث متمالِكًا لأعصابه متحكِّمًا في انفعالاته محتفِظًا بهدوئه.

إن حلَّت به ضـــيقة لا يفكِّر في متاعبها بل يفكِّر في حلِّها. ويضـــع في

نفسه أن كل ضيقة لها حل أو حلول، وأن كل ضيقة لها مدى زمني معيَّن تنتهي فيه. إن وصل إلى حل يستريح، وإن لم يصل يترك الأمور إلى معونة الله الذي عنده حلول كثيرة، معتمِدًا على هذا الإيمان. ومهما ازدادت الضيقات فالقلب الكبير لا يسمح للشيطان أن يوقِعه في اليأس وأن يصوِّر له الأمور معقَّدة ولا حلّ لها.

إن القلبَ الكبير لا يستسلِم للضيقات، بل إنه قد لا يشعُر بالضيقة لأنَّها لم تضايقَه. وأتذكَّر أنني قلت في إحدى المرات: إن الضيقة سُمِّيت ضيقة لأن القلب قد ضاق عن أن يتَّسع لها. أما القلب المتِّسع الكبير فلا يتضايق بشيء.

الضيقة إذًا في قلوبِنا وليست في العوامل الخارجية: إن تعكَّرنا نحن، نرى كلَّ الأمور متعكِّرة. وإن تعِبنا في الداخل، تبدو كل الأمور متعِبة. أليس حقًا أن أمرًا من الأمور قد يضايق إنسان ما، وفي نفس الوقت لا يتضايق منه إنسان آخر. بينما الموضوع هو نفس الموضوع!

ليس المهم إذًا نوع الأحداث التي تحدُث لنا. بل المهم بالأكثر هو الطريقة التي نتقبَّل بها الأحداث ونتصرَّف معها.

فالقلب الكبير الذي يصمد أمام الإشكالات يزداد قوة. بينما القلب المضطَّرِب الذي ينهار أمامها يزداد ضعفًا.

هي نفس الإشكالات ولكنها تُقوّي شخصًا وتزيده صلابة ومِراسًا وحنكة، بينما تُضعِف شخصًا آخر وتزيده انهيارًا وحزنًا.

لذلك كونوا أقوياء من الداخل وخذوا من الضـــيقات ما فيها من بركة وليس ما فيها من ألم.

٥- القلب العطوف الشفوق

القلب الشـــفوق هو القلب المملوء بالحنان والحب، البعيد كل البعد عن القســـوة. إنه يفيض رِقَّة وإشـــفاقًا على كل أحد، حتى على الذين لا يستحقون.

† مجالات الحنُوّ

حنُو الإنسان على غيره قد يشمل الكائنات جميعًا..

فيحنو على العصفور المسكين، وعلى القط الصغير، وعلى النبتة الذابلة، وعلى الشجرة العطشى إلى الماء. ويحنو على الحيوان الضعيف الخائف من وحشٍ يفترســـه! بل قد يحنو على الوحش المفترس! مثل ذلك القديس الذي رأى أسدًا يئن من شوكة في قدمه. فانحنى وأراحه منها. وحفظ الأسد له هذا الجميل. المملوء بالحنان والرقة، الذي يفيض إشفاقًا على كل أحد، حتى على الذين لا يستحقون!

قد يكون الحنُوّ في نواحٍ مادية أو جسدية، أو قد يكون في نواحٍ نفسية أو معنوية أو روحية.

وخلاصـــة الأمر. أن القلب العطوف يفيض بحنانه في كل المجالات وعلى الكل. فيشـــفق على الفقير المحتاج، وعلى المريض المتألِّم. كما يشفق على اليائس المتعَب نفسيًا، وعلى الخاطئ الساقِط في خطيئة أو في عادة رديئة، وهو في حاجة إلى مَن يأخذ بيده ويقيمه.

إن القلب الحنون يمكنه أن يكسب الناس، أما القلب القاسي فيخسرهم.

الناس يحتاجون إلى مَن يعطف عليهم، وإلى مَن يأخذ بأيديهم، إلى من يشجع الضعيف، ويقيم الساقط، ويفتح نافذة من رجاء أمام اليائس، يفهم ظروف الناس واحتياجاتهم.

وتكون له روح الخدمة نحو من يحتاج إلى خدمته. فيخدم الكل، ويساعد الكل، ويعين الكل، ولا يحتقر ضعفات أحد، بل يشجع ضعاف النفوس، ويسند الضعفاء. ويتأنى على الجميع. فتيلة مدخنة لا يطفئ. فربما تهب ريح على هذه الفتيلة المدخنة فتشتعل، وتضيء مرة أخرى.

† أسلوب إظهار الحنان

القلبُ الشفوق يجولُ يصنع خيرًا.

الحنان ليس مجرد عاطفة في القلب، وإنما هي تتحول إلى عمل جاد من أجل إراحة الغير. **أما الحنان النظري فهو حنان قاصـــر وحنان ناقص، يحتاج إلى إثبات وجوده عمليًا.**

ويقول الإنجيل في ذلك: "لاَ نُحِبَّ بِالْكَلاَمِ وَلاَ بِاللِّسَـانِ، بَلْ بِالْعَمَلِ وَالْحَقِّ" (١يو٣: ١٨).

القلب العطوف يجول يصـــنع الخير. ولا يقول عن الســـاقطين الخاطئين إنهم لا يســـتحقون، بل يرى بالحري، أنهم يحتاجون. أليس الله – تبارك اسمه – هو في علو قداسته، نراه يشفق علينا، ونحن في عمق خطايانا. وهكذا يستر ولا يكشف! وكم من أناس غطسوا في الشر، فلم يكشفهم ولم يفضحهم، ولم يشأ أن يعلن مساوئهم للناس.

إنهم لو انكشفوا لضاعوا. وانسد أمامهم الطريق إلى التوبة بعد فقدهم ثقة الناس!

قال أحد القديسين: "إن لم تستطع أن تحمل خطايا الناس وتنسبها إلى نفسك لتنقذهم، فعلى الأقل لا تستذنبهم وتنشر خطاياهم".

أيضًـــا القلب العطوف دائمًا يعطي. وهو يعطي في حب، وباســـتمرار، ودون أن يُطلَب منه، بل بدافعٍ داخلي. إنه دائم التفكير في احتياجات الناس ليقوم بها، دون أن يطلبوا منه.

هذا القلب العطوف يريد أن يريح الناس وأن يسعدهم. وإن وضعت في يده مسئولية، يستخدمها لراحة الناس. وإن وهبه الله ثروة أو سلطة أو أية إمكانية، فإنه يستخدمها أيضًا لأجل راحة الناس، كل الناس.

والقلب العطوف لا يستطيع أن ينام، إن عرف أن هناك شخصًا في تعب أو احتياج، بل يظل يفكر ماذا تراه يفعل لأجله. لذلك كان من المستحيل على مثل هذا القلب أن يؤذي أحدًا، لأنه يتألَّم لآلام الناس أكثر من تألُّمهم هم. وهو يعطي باكورة إيراداته، أي أوائل ما يصل إليه، كي يبارك الله الكل. يعطي المرتب الأول الذي يتقاضاه، والعلاوة الأولى، وأول ما يصل إليه من إيراد. فالجرّاح مثلًا يعطي أجر أول عملية يجريها. والطبيب يعطي أجر أول كشف. والمدرس يعطي أجر أول درس خصوصي.

والصانع يقدم أجرَ أول عمل يقوم به. والزارع يعطي أول حصيد أرضه، وأول ثمر شجره. كل ذلك يقدم عطيَّة للمحتاجين والمعوزين.

وأجمل ما في العطاء أن يعطي الإنسان من أعوازه ليسد احتياج غيره. وفي هذا منتهى الحب والحنو، لأن فيه تزول الذاتية وتحل محلها محبة الغير، بل تفضيل الغير على المعطي نفسه.

وفي كل هذا، يشعر القلب العطوف بأنه إنما يعطي من مال الله لأولاد

الله، دون أي فضل من جهته! وكيف ذلك؟

في الواقع إننا لا نعطي شيئًا من مالِنا، بل من الله الذي أعطانا ما نعطيه، وأعطانا أيضًا موهبة العطاء.

فكل شيء نملكه هو ملك لله. ونحن مجرد وكلاء على ما عندنا من مال، قد استودعنا الله إياه لكي ننفق منه على وجهات الخير، وهو الذي يعطي القلب العطوف ما فيه من عطف وإشفاق.

يشعر بمتاعب الناس، ويحاول أن يريحهم، حتى دون أن يطلبوا منه ذلك. وبخاصة لو كان في موقع المسئولية. لا ينتظر حتى يصرخ الناس أو يصيحوا أو يُكثِروا شكواهم. بل بإحساسٍ مرهَف يعرِف مواضِع الألم وأسباب الضيق، ويهتم بكل أحد.

إنه كالماء الذي ينساب في الحقل، يروي كل شجرة. ولا يسمح لضميره أن يرى واحدة منها تذبل من العطش أو من قِلَّة السماد. إن الذي ائتمنته الجماهير على مصائرها ينبغي في عمق حُنوّه أن يحل مشاكل هؤلاء، ولا يدع أحدًا رازحًا تحت حمل، بل يرفعه عنه.

ما أجمل قول السيد المسيح: "تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (مت١١: ٢٨).

إن الشفقة ليست فقط واجب المسئولين في مجال مسئوليتهم. بل هي

واجب إنساني على كل قلب يشعر بآلام الغير.

من هنا كان عمل المتطوعين في ميادين الخير. مثال ذلك: الجمعيات الخيرية الكثيرة في أغراضـها المتعددة. ومنها الملاجئ للأيتام، ولجان البِر التي تهتم بالفقراء والمحتاجين. وجمعيات الصـــليب الأحمر، وجمعيات الهلال الأحمر. ومنها أيضًـــا الجمعيات الخيرية الطبِّية، مثل جمعيات مكافحة الدرن، وجمعيات العناية بمرضـى الجزام، والجمعيات التي تعتني بالصُم والبُكم والمكفوفين، وسائر المعاقين جسديًا وذهنيًا.

ويدخل في هذا النطاق أيضًـا المتبرعون بالدم لمن يحتاجونه في عمليات جراحية. وكذلك كل الهيئات الخيرية التي تحت عنوان:

Non-Governmental Organizations (N.G.O.'s).

✞ ومن أصحاب القلوب الشفوقة: المشفقون على الخطاة.

ما أسـهل معاقبة الخاطئ على خطيئته. ولكن العمل النبيل الشـفوق هو إنقاذه من خطيئته. حتى بالنسبة إلى المسجونين. وقد قيل عن السجن أنه "تأديبٌ وتهذيبٌ وإصلاح" ونرجو أن يكون كذلك فعلًا، ولا يكون بيئة يؤثِّر فيها الشرير على الذي دخل السجن لسقطةٍ في تصرُّفه لا في طبيعته. من هنا فإن الدولة تسـمح لبعض رجال الدين أن يعملوا في السـجن على وعظِ المسجونين وهدايتهم.

كما يقوم بعض الخيِّرين بخدمةِ أولئك المسجونين، فيقدِّمون لهم ما يحتاجون إليه من ملابس، ومن أطعمة، ومن كتب، مع سائر حاجياتهم الأخرى. ويهمُّنا من هذه الشفقة والرعاية وأعمال الحُنوّ، أن يخرُج السجين غير ساخطٍ على المجتمع، وقد استفاد من فترةِ سجنِه أدبًا وتغيير حياة.

على أن القلوب المشفقة على المسجونين تقوم بعمليْن آخريْن: عمل منهما للمسجونين على ذمة التحقيق، قبل أن يُصدِر القضاء حكمَه. وهؤلاء قد يحتاجون إلى محامين يقومون بالدفاع عنهم. وتقتضي الشفقة تزويدهم بمستلزمات هذا الدفاع.

الأمر الثاني هو العناية بأسرة السجين العائل الوحيد لهذه الأسرة ويحتاج الأمر إلى رعاية الأسرة من كافة النواحي، والاستمرار في هذه الرعاية إلى أن يُطلَق سراح السجين، وربما بعد أن يُطلَق سراحَه أيضًا، حتى يدبِّر له مصدر رزق.

من عمل القلوب المشفقة على الخطاة أيضًا: الشفقة على ضحايا الإدمان، سواء في أولِ انحرافِهم أو بعد السقوط في الهُوَّة.

سهل جدًا أن نحكم على المدمنين، أو أن نتجنَّبهم، ولكن الشفقة نحوهم تقتضي تخليصهم مما قد تورَّطوا فيه. والعلاج هنا يمرُّ في مرحلتيْن: المرحلة الأولى عبارة عن علاجٍ طبي، لتخليصهم من تلك السموم التي

دخلت في أجسامهم.

والمرحلة الثانية هي مرحلة التأهيل، وتحتاج إلى حجزهم في مكان بعيد عن كل الإغراءات التي قد تُعيدهم إلى التعاطي مرةً أخرى، ورعايتهم حتى يتم شفاؤهم تمامًا جسدًا ونفسًا.

وتقتضي الشفقة عليهم أمريْن آخريْن: أحدهما يتعلَّق بعائلاتِهم والصلة بها. والثاني بتوظيفِهم بعد الشفاء، ورد اعتبارهم.

هنا ننتقل إلى الحديث عن الشفقة على الخطاة بصفة عامة.

الناس على أنواع في تعاملِهم مع الخطاة: ما بين قسوة الحكم، أو مجرد الكلام والتشهير، أو العطف على هؤلاء الخطاة وإنقاذهم مما هم فيه. ولننظر أيضًا إلى موقف الله من الخطاة. ما أكثر ما يستُر الله على الخطاة. كم من الناس قد غطسوا في الشر حتى غطّاهم. ولا يزال الله يستُر. لم يكشفهم ولم يفضحهم.

ولم يعلِن بأية الطرق على خطاياهم. لأنهم ربما لو انكشفوا، لضاعوا وانسدَّ أمامهم الطريق إلى التوبة، بعد فقد ثقة الناس بهم.

الله الذي لا حدود لقداسته يستُر. بينما الناس يُشهِّرون بغيرِهم، على الرغم من أن لهم أيضًا عيوبًا وسقطات. ولكنها القسوة.

القلب القاسي باستمرار يحطِّم ويهدِم. وقسوته لا تُشفِق ولا ترحم. هو كالنار التي تأكُل كلَّ شيءٍ حتى نفسها.

أما القلب الشفوق، فإنه يستُر خطايا الناس. لا يتحدَّث عنها ولا يُشهِّر بها، ولا يقسو في الحكم عليها. بل قد يجد لأصحابها عذرًا! أو يخفِّف من المسئولية الواقعة عليهم. وإن قابلهم لا يفقد توقيره لهم، معطيًا إياهم فرصة لإصلاحِ حالتهم.

إن القلب الشفوق يعيش في مشاعر الناس، يتصوَّر نفسه في مكانهم. لذلك لا يسمح لنفسه بأن يجرح أحدًا. بل يبرهن على نقاوة قلبه بعطفِه على الكل. إنه يعرف أن الطبيعة البشرية حافلة بالضعفات، وأن أقوى الناس ربما تكون في حياته ثغرات.

وقد يسقط إن اشتدت الحروب الروحية عليه، وإن تخلَّت عنه النعمة الحافظة! لذلك فهو ينظر إلى الناس في حُنوّ، في قيامهم وفي سقوطهم أيضًا.

كان القديس يوحنا القصير، إن سمع عن أحد أنه سقط في خطية يبكي، فإن سُئل عن سبب بكائه يقول: "إن سقوط هذا الأخ يدل على أن الشيطان نشيط ويعمل. وإن كان قد أسقط أخي اليوم، فربما يُسقِطني أنا غدًا".

وهكذا في اتضـاع لم يضـع هذا القديس نفسـه في مرتبةٍ أسـمى من غيره، وبكل حُنوّ نظر إلى سقطة ذلك الأخ، ونسبَها إلى الشيطان لا إلى فسادِ طبع ذلك الذي سقط، ولهذا لم يحكم عليه في قسوة.

قال أحد الآباء: "إن لم تستطع أن تمنع ذلك الإنسان الذي يتكلَّم على أخيه بالسوء، فعلى الأقل لا تتكلَّم أنت".

إن **القلبَ الحنون** لا يعامل الناس بالعدلِ مجرَّدًا، إنما يخلِط بعدلِه كثيرًا من الرحمة. هذا لو كان عدله أيضًا صادقًا ودقيقًا.

إن **القلبَ العطوف**، لا يعامل الناس بالعدِل المطلق مجرَّدًا، ولا يجعل عدلَه عدلًا جافًا حرفيًا، يطبِّق فيه النصوص. بل يَخلِط بالعدل كثيرًا من الرحمة. أما الذي يصبُّ اللعنات على كلِّ مخطئٍ، دون أن يقدِّر ظروفه أو يفحص حالته، فإنه قلبٌ لا يرحم.

بل يجب عليه كذلك أن يقدِّر الظروف المحيطة، سواءً كانت عوامل نفسية أو وراثية، أو عوامل اجتماعية، أو تربوية. أو أسباب ضاغطة. أما الذي يصبُّ اللعنات على كلِّ مخطئ. دون أن يقدر ظروفه ويفحص حاله، فإنه صاحب قلب لا يرحم.

والقلب الحنون لا يحكم على أحد بسرعة. بل يعطي كل أحد فرصة للدفاع عن نفسه، ولتوضيح موقفه.

والقلب الشفوق لا يُكثِر اللومَ والتوبيخ.

وإن وبَّخ، يكون ذلك بعطفٍ وليس بقســوة، وقد يقدِّم لتوبيخِه بكلمة تقدير أو كلمة حب، حتى يكون التوبيخ مقبولًا، وإن احتاج الأمر منه إلى حزمٍ وشدَّة، فقد يفعل ذلك مضطرًا. ولكنه في مناسبةٍ أخرى يعالج بالحُنوِّ نفسية ذلك المخطئ، لكي يزيل منها ما علَق بها نتيجة للشدَّة السابقة.

والقلب الحنون لا يُخجِل أحدًا، ولا يجرَح أحدًا.

وقد يشــير إلى الخطأ من بعيد، بألفاظٍ هادئة وربما بطريقٍ غير مباشــر، وربما في الســر وليس في أســماعِ الناس. أما الذي يرجِم الناس بالحجارة فعليه أن يتروَّى لئلا يكون بيته من زجاج!! وليعلم أن كل الفضـــائل – بدون المحبة – ليســـت شـــيئًا. والمحبة تتأنَّى وتترفَّق. والحِكمة هي أن يكسب الناس بالحُنوِّ، ولا يخسر الناس بالقسوة.

والقلب الحنون يعزّي الناس في ضيقاتهم.

ويُشعِرهم بأن وراء كل ضيقة فرجًا يريده الله منها. وأن هذا الفرج قد لا نراه بالعين المادية، ولكننا نراهُ بالإيمان، بالثقة في عمل الله المحُب وحُســـن رعايته للبشر. فالله – في محبته للبشر – لا يسمح أن تحل تجربة بإنسان تكون فوق طاقة احتماله. والتجارُب الشديدة التي رواها التاريخ، لم يسمح بها الله إلا لأشخاص أقوياء يحتملونها.

كما حدث لأيوب الصــديق. الله أيضًــا يجعل مع التجربة المنفذ، ويجعلها تؤول إلى النفع إذا ما أحسن الإنسان استخدامها.

لذلك فصــاحب القلب الحنون يُنصِــح بأنه رغم أن المتاعب قد تحيط به من الخارج، ولكن ليس من الحكمة أن تدخل تلك المتاعب إلى داخل النفس.

مثال ذلك السفينة الكبيرة التي تمخُر عِباب المحيط، قد تضطرب الأمواج وتعلو من حولها. ولكن السفينة تظل سائرة نحو هدفها في رصانةٍ وهدوء، طالما أن المياه لا تزال خارجها. مسكينة تلك السفينة، إن وُجِد ثقب فيها، استطاعت به المياه أن تتسرب إلى داخلها.

✞✞✞

الفصل الخامس

أمراض القلب

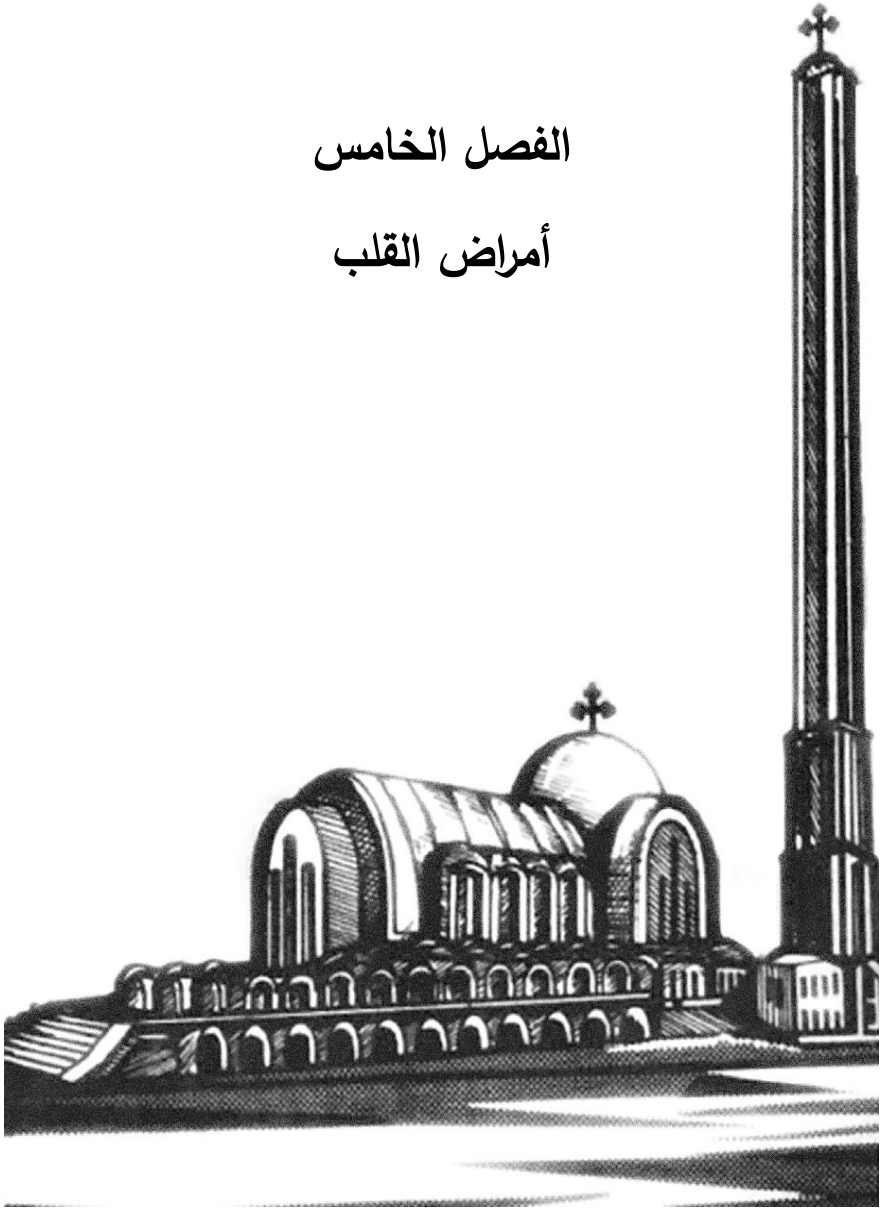

أمراض القلب

١ – قساوة القلب

القساوة مكروهة من الجميع، إلاَّ من القساة أنفسهم. وهي منفِّرة، ولها نتائج سيِّئة عديدة. وهي ضد الرحمة والرأفة والرِقة، وضد الوداعة والاتضاع.

✞ مظاهر القسوة

ومن مظاهر القساوة: الكلمة القاسية، والنظرة القاسية، والمعاملة القاسية، والعقوبة القاسية، والتوبيخ القاسي، والعتاب القاسي، وغير ذلك، أي أن القلب القاسي يبسط قساوته على تصرفاته. وقد تكون قساوته على الجسد أو على النفس أو كليهما. وسنحاول أن نطرِق كل هذه الأمور، كما نبيّن أسباب القساوة ونتائجها.

✞ مصادر القسوة

غالبًا ما تكون القسوة ناتجة من استبداد القوي بالضعيف، والعمل على قهره، في حين لا يستطيع هذا المسكين أن يدافِع عن نفسه، أو أن يقاوم بَطش القوي! والعجيب أن هؤلاء القساة لا يوبّخهم ضميرهم، بل إنهم يعتبرون بطشَهم دليلٌ على ما يتمتعون به من قدرةٍ وقوَّة! أو إنه دليلٌ على سلطانِهم وسيطرتِهم.

مجالات القسوة

وقد تصــدُر القســوة في محيط الأســرة، من أبٍ يُخطئ في فهمِ أســلوب التربية السـليمة، ويظن أن الحزمَ في تربيةِ أبنائِه يعني القسـوة عليهم لكي يتأدَّبوا!! وهكذا يضيِّق عليهم في كلِّ شيء، ولا يعطي لشخصياتهم فرصة للنمو، بل على العكس يجعلهم يعيشـــون في جوٍ من الأوامر والنواهي، وفي لون من الحصر النفسي، مما يجعلهم يكرهون البيت الذي يعيش فيه هذا الأب العنيف القاسي، وقد يهربون من قسوته، ملتمسين صدرًا حنونًا وحضنًا دافئًا يحتويهم، وربما يقودهم ذلك إلى الضياع أو الضلال.

وربما تحدُث هذه القســوة من زوجٍ ضــد زوجتَه، باعتبارِه رب البيت، وله ســلطان على الزوجة، فيهينها ولا يعاملها برفق، ولا يشــفِق عليها في أي تقصــيرٍ مهما كان غير مقصــود، أو ما يعتبره هو تقصــيرًا حسـب وجهة نظره. وبهذا الوضــع يختفي الحب من بيت الزوجية، وتحلُّ محلَّه السـلطة والنفوذ. وقد تتهدَّد الحياة الزوجية بالتفكُّك، والزوج لا يبالي. وكل ما يهمه أن يحتفظ بمركزه كرجل البيت القوي، الذي كلُّ شـــيءٍ في نطاق قوته وسلطانه!!

في بلاد الغرب – أمريكا مثلًا – إذا قسـا الرجل على زوجته أو أولاده، أو إن ضـــرب أحدًا منهم، بإمكانهم اللجوء للبوليس تليفونيًا، فيأتي ويقبِض

عليه ويبيت في الحبس، ويُحقَّق معه. وفي بلاد الشـــرق يمكن أن تلجأ الزوجة إلى القضـاء وتطالِب بالانفصـال عن زوجها لسوء معاملاته. غير أن كثيرًا من النساء يقبلن القسوة من الزوج في صبر، باعتباره أبو الأولاد، وعائل الأسرة وسند البيت، ويعرف الزوج هذه الحقيقة ويستمر في قسوته!

وأحيانًا يقسو أبو الأولاد (من زوجته الأولى) عليهم، بسبب زوجته الحالية التي توغِر صدره ضدهم، لأنها لا تحبهم، وقد تصدر القسوة منها مباشرة ضد هؤلاء الصغار، ولذلك يكره الأبناء زوجة الأب ويصفونها بالقسوة.

نفس الاســتبداد بالضــعفاء والقســوة عليهم، يحدث في مجال العمل، من مدير قاسٍ ضد موظِّفيه أو مرؤوسيه. وذلك بحكمِ سلطانِه عليهم، وشعوره بالقدرة على التدخل في مصائِرهم. وما أسهل أن يكتب تقارير شديدة ضد بعضـهم تسـيء إليهم، ويستغلهم بتهديده بالخصم من مرتبهم، بل والفصل من الوظيفة. ولهذا نادرًا ما يشـكو هؤلاء الموظفون من رئيسـهم القاسـي، بل قد يتملَّقونه في جبن، حِرصًا منهم على بقاءِ مصدر رزقهم، وخوفًا من هذا الإذلال الذي يقاسونه من هذا القاسي! فيهبط مستوى نفسياتهم.

الرجل النبيل أو الروحاني، يحاول باستمرار أن يُخضِع نفسه بتداريب من ضبط النفس، وبخاصة في حالة الغضب، أما الشخص القاسي فهدفه أن يُخضِـــع غيره له، اعتزازًا منه بقوته، غير مبالٍ بالمثاليات. ومســكينٌ من

يقع في يده، لهذا صدق داود النبي حينما قال: "فَلْنَسْقُطْ فِي يَدِ الرَّبِّ، لأَنَّ مَرَاحِمَهُ كَثِيرَةٌ وَلاَ أَسْقُطْ فِي يَدِ إِنْسَانٍ" (٢صم٢٤: ١٤).

القسوة تحدُث أحيانًا في مجالِ العقوبة، حينما تكون فوق الاحتمال، وبعدم النظر إلى ظروف المخطئ. وما أكثر ما يحدُث بطريقٍ غير مباشر، أن تصيب العقوبة أيضًا أسرة المخطئ. لأنه هو عائل الأسرة. ومعروف المثل ".. أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرَّعِيَّةِ" (مت٢٦: ٣١). لذلك يحسُن أن ينظر المجتمع في معاقبةِ المخطئين إلى الحالةِ الاجتماعية وليس إلى مجرد الفرد!

القسوة كذلك تأخذ مجالها في "أجورِ العاملين"، فالرجل الثري الذي يملك المصانع والشركات والمشروعات، وكذلك الغني الذي يحتكر السوق، إذا حدث من هذا أو ذاك أنه أعطى العاملين تحت يده أجورًا زهيدة لا تكفي معيشتهم مع غُلُوّ الأسعار، فهذه بلا شك قسوة منه، وعدم مبالاة بحاجة الآخرين وعوَزهم. **هؤلاء مذلتهم تصرخ إلى الله، ويصرخ معها كل المهمشين في المجتمع الذين لا يجدون رزقًا ولا وظيفة.**

إن إذلال الناس قسوة لا يرضاها الله: "مَنْ يَسُدُّ أُذُنَيْهِ عَنْ صُرَاخِ الْمِسْكِينِ، فَهُوَ أيضًا يَصْرُخُ وَلاَ يُسْتَجَابُ" (أم٢١: ١٣). لأنه "بِنَفْسِ الْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ" (لو٦: ٣٨). فليلتفت القساة إلى أنفسهم، لئلا يأتي

الوقت الذي فيه يجازيهم الله حسب أعمالهم.

متى يلين إذًا قلب القاســـي ويتخلَّص من قســـوته؟ ومتى يرحم غيره لكي يعامله الله بالرحمة؟ متى يعرف أن الفترة التي يمارس فيها القســـوة على الأرض هي فترة محدودة إذا ما قيست بالأبدية غير المحدودة. ويفيق من غفلته وفي نبلٍ يشعر بآلام غيره والمعاناة التي يسببها لهم.

حســنٌ أن يعيش الإنســان ســعيدًا، ولكن إن أســعد غيره، فإنه يشــعر بسعادة أكثر. فإن كانت في يده سلطة أو ثروة، ليته يستطيع أن يُسعِد بها الآخرين، فيدعون له أن يبقيه الله وينمِّيه، ويطرح الخير كل الخير فيه.

وإن كانت القسوة سببها السلطة أو محبة السيطرة، فإن السلطة لا تدوم، إنما هي اختبار للإنســان كيف يســتخدمها؟ هل لإســعاد غيره، أو لإثبات عظمته هو وقدرته على إخضـــاع الغير؟! حقًا إن في القســـوةِ لونًا من الكبرياء يجب أن يتخلَّص منه القلب النبيل الحريص على أبديته، كذلك فإن القلب الحســاس الذي يشــعر بآلام الغير ويشــفِق عليهم لا يمكن أن يكون قاسيًا في يومٍ ما، على أيّ أحد.

٢- الكبريـاء

خطورتها أنها الحرب التي سقط بها الشيطان، وذلك حينما قال في قلبه: "أَصْــعَدُ إِلَى السَّــمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِــيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللهِ، وَأَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ

الاجْتِمَاعِ فِي أَقَاصِي الشَّمَالِ. أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ السَّحَابِ. أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ" (إش١٤:١٣-١٤).

وكذلك استطاع الشيطان أن يُسقِط بها الإنسان الأول، وهكذا قال لآدم وحواء: ".. وَتَكُونَانِ كَاللهِ.." (تك٣:٥).

وبها حلَّ غضب الله على هيرودس، فضربه ملاك الرب فمات. لأنه بكبرياء لَمْ يُعْطِ الْمَجْدَ للهِ (أع١٢:٢١-٢٣). ولذلك ما أخطر قول الكتاب: "قَبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ، وَقَبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ" (أم١٦:١٨).

ولعل السبب في هذا، أن المتكبّر تتخلَّى عنه النعمة فيسقط. كما أن الله يضربه فينكسِر. يقول الكتاب: "إن الرب يدوس على كبرياء البحر. عند ارتفاع لُججه، هو يسكِّنها" (مز٨٩: ٩). بل يقول أيضًا: "إن لرب الجنود يومًا على كلِّ متعظِّمٍ وعالٍ، وعلى كلِّ مرتفعٍ فيوضع. وعلى كلِّ أرزِ لبنان العالي المرتفع، وعلى كلِّ بلوطِ باشان. وعلى كلِّ الجبالِ العالية، وعلى كلِّ التلالِ المرتفعة، وعلى كلِّ برجٍ عالٍ، وعلى كلِّ سورٍ منيع. وعلى كلِّ سُفنِ ترشيش، وعلى كلِّ الأعلامِ البهِجة. فيخفض تشامخ الإنسان، وتوضع رِفعة الناس، ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم" (إش٢:١٢-١٧).

وهكذا يقول الرسول في صراحة: "يُقَاوِمُ اللهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ

فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً" (يع٤:٦).

حقًا ما أخطر عبارة "يُقَاوِمُ اللهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ". من ذا الذي يستطيع أن يَثبُت، إن كان الله يقاومه؟! وهكذا قال عن أيوب لما صار بارًا في عينيّ نفسه: ".. اَللهُ يَغْلِبُهُ لاَ الإِنْسَانُ" (أي٣٢:١-١٣).

الشيطان أيضًا شغوف بإسقاطِ الأقوياء. ولذلك قيل عن الخطية أنها: "طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرْحَى، وَكُلُّ قَتْلاَهَا أَقْوِيَاءُ" (أم٧:٢٦).

ما هي الكبرياء؟

هي ارتفاع القلب وحالة إنسان يكبر في عينيّ نفسه. ويريد أن يرتفع في أعين الناس بل قد يقف أمام الله في كبرياء! قد يكون بَارًّا فِي عَيْنَيْ نَفْسِهِ. (أي٣٢:١).

ويسمَّى هذا الشعور "خطيَّة البِر الذاتي". وقد حذرنا الكتاب من هذا الأمر فقال: "عَلَى فَهْمِكَ لاَ تَعْتَمِدْ. لاَ تَكُنْ حَكِيمًا فِي عَيْنَيْ نَفْسِكَ" (أم٣: ٥). وقد يظن إنسان في نفسه أنَّه قويّ أو عظيم. وفي كل ذلك يُصاب بالخيلاء وهذا كله يسمونه "المجد الباطل". وقد تأتي الكبرياء بمعناها الذاتي.

أو بالأسلوب المقارن كأن يقارِن الإنسان نفسه بغيره، فيرى أنه أبرُّ من هذا، وأقوى من ذاك، وأفضل من هؤلاء. وقد فعل الرجل الفريسي هذا

الأمر، وافتخر بأنه أفضل من العشار (لو١٨: ١١).

ومن هذا المثال نخرج بنتيجة أخرى وهي...

هناك كبرياء مخفاة في القلب: وكبرياء ظاهرة للناس ومن أمثلة الكبرياء الظاهرة: الافتخار، إذ يعلنها اللسان حينما يتحدث الإنسان عن نفسه، ويمدح ذاته أمام الآخرين.

وأيضًا من أمثلة هذه الكبرياء الظاهرة: التعالي على الآخرين، وأيضًا الكبرياء الواضحة في مظهر الإنسان.

وقد قسَّم الآباء الرهبان هذه الكبرياء إلى نوعيْن: عجرفة علمانية، وعجرفة رهبانية..

أما العجرفة العلمانية: فهي لأسبابٍ يُسرُّ بها العلمانيون خاصة بالمظهر الخارجي كالعظمة الواضحة في نوعية الملابس والأثاث والمرْكبات، وألوان الزينة والحلي، والعظمة في طريق الكلام وفي المشي وفي الجلوس، وفي أسلوب التخاطب، والنفخة والعنجهية، والنظرة المتعالية.. إلخ.

أما العجرفة الرهبانية: فلها الطابع الرهباني الذي يظن به الراهب أنه يعلو في نظر غيره، من جهةِ الصمت والوحدة، ومظاهِر الزُهدِ والنُسك، والصمت أو الحديث عن الدرجات الروحية العليا.

شـيء أن يظنُّ الإنسـان أنه كبير، وشـيء آخر أن يعامِل الناس على هذا الأساس، ويطلب معاملته ككبير.

فيكلِّم الناس من فوق، ويُشـعِرهم أنه أكثر منهم علمًا وفهمًا، أو أعلى منهم مركزًا، ويتطلـب لونًـا من الاحترام، ويرى أنـه دائمًـا على حق وغيره هو المخطئ. ويتعامل مع الناس بأسلوب لا يقبل على نفسه أن يعاملوه به.

أسباب الكبرياء

قد يتكبَّر الإنسـان بسـبب صِـفات ذاتية فيه، أو بسـبب ظروف محيطة به..

فقد يكبر في عينيّ نفسـه بسـبب قوَّته، أو ذكائِه، أو علمِه، أو جمالِه، أو شكلِه، أو بسبب مركزِه ومنصبِه، أو غناه أو قرابتِه لأشخاصٍ كبار. أو قد يكون سـبب كبريائه ما حباه الله به من مواهب ونِعم، كالمواهب الفنية في الرسم أو الموسيقى أو الشعر أو رخامة الصوت. أو مواهب أخرى عقلية أو روحية. فقد يكبر في عيني نفسه بسبب قدرته على الصوم، أو دموعه في الصـلاة، أو بسـبب مطانياته وتأملاته وسـهره، أو بسـبب مواهب في صنع المعجزات، أو استجابة صلواته.

والعجيب أن غالبية المتكبرين هم من النوع الذي أحسن الله إليه. فبدلًا من أن تقوده إلى الشكر، ينحرِف بها إلى العظمة والكبرياء!

والمفروض أن الإنسان كلما كثُرَت مواهبه يتَّضِع.

كما قال القديسون إن الشجرة الجيدة المحمَّلة بالثمار، تنحني أغصانُها إلى أسفل، من ثِقل ما تحمله من ثمر. أما الشجرة التي بلا ثمر، فإن الريح ترفع أغصانها إلى فوق، بسبب الخِفة. عجيبٌ أن يكون الممتلئون متضعين، بينما الفارغون يرتفعون! المفروض أن يتَّضِع أصحابَ المواهب، عارفين تمامًا أن هذه المواهب هي من الله لهم، ولا فضل لهم فيها.

فيعطون المجد لله الذي وهب، وليس للإنسان الذي أخذ. كما قال المرتِّل في المزمور: "لَيْسَ لَنَا يَا رَبُّ لَيْسَ لَنَا، لكِنْ لاسْمِكَ أَعْطِ مَجْدًا.." (مز١١٥: ١). فيشكرون الله على عطيتِه، ويشعرون بعدم الاستحقاق لها. ما أصعب المواهب وما أكثر الذين لم يستطيعوا احتمالها!

وما أصدق الأنبا أنطونيوس الكبير حينما قال: "إن احتمال الكرامة أصعب من احتمال الإهانة". فكثير من الذين نالوا مواهب، لم تسَعهم الدنيا بسببها، وتغيَّر قلبهم من الداخل، وتغيَّرت معاملاتهم للناس، حتى لأصدقائِهم! وسقطت نفوسهم وكما قال الشاعر:

لما صديقي صار من أهلِ الغِنى .:. أيقنت أنّي قد فقدت صديقي

إن افتخر الإنسان بموهبة، ما أسهل أن يأخذها الله منه.

وذلك رحمة من الله، حتى لا يهلَك هذا الإنسان بسبب مواهبه، أو يكون سحْبها عقوبة له لأنه أساء استخدامها. أو النعمة تأخذ منه الموهبة، حتى يشعر بضعفِه فيتَّضع. لذلك كثيرًا ما سقط أصحاب المواهب. قال أحد القديسين: "المفتخِر بالعِفَّة يقع في الزنا. والمفتخِر بالمعرفة قد يقع في البِدعة والهرطقة. والمفتخِر بالقداسة يقع في فِخاخ الشياطين".

وكثيرًا ما يهِبْ الله مع المواهب ضيقة، لكي تحفظها.

مثلما قال القديس بولس الرسول: "وَلِئَلاَّ أَرْتَفِعَ بِفَرْطِ الإِعْلاَنَاتِ، أُعْطِيتُ شَوْكَةً فِي الْجَسَدِ، مَلاَكَ الشَّيْطَانِ لِيَلْطِمَنِي، لِئَلاَّ أَرْتَفِعَ" (٢كو١٢:٧).

ومثل الضيقات التي أصابَت داود الموهوب، الذي كان شاعرًا وموسيقيًا ويُحسِن الضرب بالعود، "وَهُوَ جَبَّارُ بَأْسٍ وَرَجُلُ حَرْبٍ، وَفَصِيحٌ وَرَجُلٌ جَمِيلٌ.." (١صم١٦:١٨). وفي ضيقات داود قال: "خَيْرٌ لِي أَنِّي تَذَلَّلْتُ لِكَيْ أَتَعَلَّمَ فَرَائِضَكَ" (مز١١٩: ٧١).

وبالمثل الضيقات التي حفَظَت تواضُع يوسف الصِدِّيق، الشاب الجميل الناجح المحبوب. وهكذا نصح القديسون مَن يأتيه موهبة، بأن يصلِّي إما أن يعطيه الله ضيقة تحفظها، أو أن يرفعها عنه.

مظاهر الكبرياء

١- من مظاهر الكبرياء الافتخار والحديث عن النفس.

وأحيانًا يقدَّم هذا الافتخار في صيغة صلاة أو شكر، كما فعل الفريسي الذي قال: ".. اَللّهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ الْخَاطِفِينَ الظَّالِمِينَ الزُّنَاةِ، وَلاَ مِثْلَ هذَا الْعَشَّارِ. أَصُومُ مَرَّتَيْنِ فِي الأُسْبُوعِ، وَأُعَشِّرُ كُلَّ مَا أَقْتَنِيهِ.." (لو١٨: ١١، ١٢).

والإنسان المفتخِر بأعمالِه الحسَنة، يتكلَّم بأسلوبِ أنصافِ الحقائق. فهو يذكُر أعمالَه الحَسنة، وينسى ضعفاته وخطاياه. وحتى ما فعله حسنًا، ينسى فيه معونة النعمة، وما شارك به الآخرون في نجاح العمل. أما المتواضعون، فيركِّزون في نجاحِهم على عمل الله معهم، ويُظهِرون في شكر ما فعله الآخرون. والمتواضعون يتحدثون بالأكثر عن أخطائهم ويُخفون فضائلهم.

مثال ذلك بعض رهبان الإسقيط، الذين كشفوا للأم سارة عيوبَهم ونقائِصهم فقالت لهم: "بالحقيقة إنكم إسقيطيون لأنكم تُخفون فضائلكم وما ليس فيكم من الرذائل تنسبونه إلى أنفسكم".

٢- والمتكبِّر يتباهى بالمعرفة، ويحطِّم آراء غيره ليُثبِت تفوُّقه عليه.

وقد يلغي المفهوم العام المعروف عند الناس ليقدِّم جديدًا من عنده. وبهذا

الأسلوب وقع البعض في البدعة. أما المتواضِع فقد يجلِس وسط الناس صامتًا، وفيه كنوز من المعلومات. وبعض الآباء كانوا يتظاهرون بالجهل وهم عُلماء. وقد مدَح القديس أنطونيوس الأنبا يوسف بقوله: "طوباك يا أنبا يوسف، لأنك عرفت الطريق إلى كلمة لا أعرف". وأليهو في قصة أيوب الصديق صمت فترة طويلة تواضعًا لأن المتكلمين كانوا أكبر منه سنًا.

والإنسان المتواضِع إذا أظهر شيئًا من معرفته، يتكلَّم بأدبٍ شديد وبحِرص، حتى لا يظهر عارفًا بما يجهله غيره.

وفي خلال حديثِه يُظهِر إعجابه ببعضِ عبارات قالها غيره. ويحاول أن ينسب معلوماته إلى مصدرِها لا إلى نفسه. بعكس المتكبِّر الذي قد يقرأ أو يسمع رأيًا، فيقوله كأنه صادرٌ عنه هو. ويخجَل أن يورد اقتباسات من آخر.

٣- والمتكبِّر قد يقاطِع غيره في الحديث، وقد يهزأ به.

يريد أن يسكت غيره، ليتكلَّم هو. لأن رأيه – في نظره – هو الأفضل وهو الأحق بالسماع. وقد يعلو صوته على غيره في الكلام. وقد يهاجمه ويتهكم عليه. ويخرُج عن الموضوعية في حديثِه إلى التعليقات الماسَّة بالشخصية.

٤- والمتكبِّر يتمركَّز دائمًا حول ذاته.

وقد يصبح أنانيًا: ذاته هي مركز اهتمامه، لها المديح والكرامة والظهور والأضواء.

حتى في الصـــلاة، لا يهتم بالحديث مع الله، بقدر ما يهتم أن يكون رجل صـلاة، فيهتم بحرارة الصـلاة وخشـوعها، وبالدموع ولو عصـرها عصـرًا، كذلك تظهر ذاته في صـــومِه وفي عطائِه وفي خدمتِه، بعكس المِعمدان الذي قال: "يَنْبَغِي أَنَّ ذلِكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ" (يو٣:٣٠).

٥- والمتكبِّر يكون عنيدًا، لا يتنازل عن رأي ولا عن تصرف.

لا يخضـــع لغيره، ولا يتنازل عن رأيه. مهما كان الرأي الآخر مُصـــيبًا. ويرى أن التنازل ضد كرامته وضد هيبته. وقد تطول المناقشة معه، دون الوصـول إلى نتيجة. ولا يكون سـهل التفاهم. ويصـل إلى حد "المقاوِم"، مُريدًا أن يقيم كلمته.

٦- والمتكبِّر لإثباتِ تفوُّقه، يقع في المنافسات، وفي الغيرة والحسد.

إنَّه يُحِب دائمًا المتَّكأ الأول. وفي بعضِ الأحيان لا يكتفي بأن يكون الأول، بل يريد أن يكون الوحيد.

ولذلك تملُكه الغيرة المُرّة مِن كل مَن يراه منافسًا له. ولا يفرَح بنجاحِ غيره،

بل قد يكون كثير الانتقاد والإدانة لغيره الذي يظن أنه يسحَب الأضواء منه. فيقع في الحسد.

كما يقول القديس أغسطينوس: "الحسود يتغذَّى بسقطاتِ الآخرين".

٧- وقد يصل المتكبّر إلى القسوة والغضب والعنف.

ويستخدم هذا العنف ضدَّ كل مَن يشعر أنه يقف في طريقه، أو يمِس كرامته، أو ينافسه. وقد يعلو صوته في غضب أو انتهار أو شتيمة أو تهديد، بل وقد يصل إلى التحقير أيضًا والازدراء.

٨- والمتكبّر لا يميل إلى الاستشارة، ولا إلى الطاعة.

حتى مع أب الاعتراف، يريده منفِّذًا لرأيه وقراراته. وقد يبعُد عن استشارته، حتى لا تصطدم رغبته بمشورةِ الأب فيضطر أن يعارِض مشورته.

٩- ويحلو له أن يقارِن نفسه بغيره، مُظهِرًا أنَّه الأفضل في كلِّ شيء.

١٠- وقد يكون دائم التذمُّر والشكوى.

شاعرًا أنه لم ينل ما يستحق، وأن حقيقته أفضل من الوضع الذي هو فيه. ولذلك هو لا يعرف القناعة مطلقًا. إن الشيطان كان ملاكًا عظيمًا، ولم يقنَع بوضعه.

١١- والمتكبِّر يُحِّب أن ينال المواهب ويود لو صنع المعجزات.

ليس من أجل اســـتخدامها لخير الآخرين، إنما من أجل محبته للكرامة والشهرة. لا يسعى إلى ثمار الروح، بل إلى مواهبها.

١٢- والمتكبِّر كثيرًا ما يصاب بأمراضٍ نفسية.

قد يصـــل إلى البارانويا "جنون العظمة". وقد يصـــل إلى الانطواء، لأن المجتمع لا يعطيه حقه. وقد يصـــل إلى العنف والاعتداء دفاعًا عن كرامته.

✞✞✞

لا تقسوا قلوبكم

أيضًا قساوة القلب من أهم الأسباب التي تعوق التوبة. لذلك فإن بولس الرسول يكرر في رسالته إلى العبرانيين، هذه النصيحة العميقة:

"إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ" (عب٣: ٨، ١٣، ١٥ و٤: ٧).

لا تقسوا قلوبكم

الإنسان الروحي، أقل كلمة تؤثر فيه. أقل دعوة من الله، تلين قلبه. أقل عمل من الروح القدس يذيبه حبًا لله...

أما الإنسان القاسي القلب، فإنه لا يتأثر بسرعة...

كل الوسائط الروحية لا تغيره، مهما اعترف وتناول، ومهما سمع من وعظ، ومهما قرأ من كتب روحية... قلبه تقسّى... كالغصن، إن كان لينًا يمكنك أن تعدله. أما الغصن الناشف فلا يمكن له ذلك، كما قال الشاعر:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشب

هناك قلوب قاسية، مهما عمل معها الله لا تستجيب. مثل قلب فرعون القاسي الذي لم تلينه الضربات العشر.

في كل ضربة، كان يتأثر وقتيًا، ويصرخ طالبًا العفو، ويقدم وعودًا لله، ثم

يرجع بقســـوته مرة أخرى إلى الخطية! كان الله يريد له بالضـــربات أن يتوب. وعاقته قسوة قلبه...

هناك قوم – كفرعون – لا يســـتجيبون لعمل الروح القدس فيهم، لأن قلوبهم قاســـية، يجذبهم الله بعظة، بمرض، بتجربة، بوفاة أحد الأحباء، فيتأثرون وقتيًا. ثم ترجع قلوبهم إلى قسوتها...

لا يؤثر فيهم اللطف، ولا تؤثر فيهم الشدة. قلوب قاسية: لا تتأثر بالوسائط الروحية، ولا بالتجارب والضيقات..

خذوا مثالًا لذلك امرأة لوط، وكم عمل الرب معها.

لم تؤثر فيها مناظر الناس الأشـرار في سـدوم، بل زوجت بناتها من أهل المدينة الخاطئة. ثم سُبيت في حرب كدرلعومر، ولما نجاها إبراهيم عادت إلى المدينة. ورأت محاولة اعتداء الناس على الملاكين، وكيف ضُـــربوا بالعمى، وبقيت لاصقة بالمدينة. وسمعت تحذير الملاكين وإنذارهما بحرق المدينة، وأمرهما لهم بمغادرتها، ثم ســـحبهما لكل الأســـرة ســـحبًا خارج المدينة، خوفًا من الحريق... ومع ذلك لم يتأثر قلبها القاسي، ونظرت إلى الوراء!

قســـاوة القلب، رقّ لها في إحدى المرات، قلبٌ في الجحيم، أما هي فلم ترق. كما في قصة الغني ولعازر:

طلب الغني من أبينا إبراهيم أن يرســـل إلى أهله لعازر، لينذرهم كي لا يأتوا إلى العذاب مثله. فأجاب أبونا إبراهيم: ولو قام واحد من الموتي، فإنهم لا يصدقون ولا يؤمنون!

إنهم شعب صلب الرقبة، كما قال الرب عن إسرائيل.

كل لطف الرب معهم، لم يلين قلوبهم القاسية.

أنقذهم الرب من العبودية، شــقّ لهم البحر الأحمر، أرشــدهم بالســحابة نهارًا، وبعمود النار ليلًا. أنزل لهم المَنَّ والسَّـــلوَى، وفجر لهم الماء من الصـــخرة، وعاملهم بكل حب واهتمام. وفي قســـاوة قلوبهم، لم يفارقهم التذمر. وعبدوا عجلًا ذهبيًا. وقال الله عن هذه القساوة:

"طول النهار بسطت يديّ، إلى شعب معاند مقاوم" (رو ١٠: ٢١)...

القلب القاسـي كالأرض الصـخرية، لا يمكن أن تأتي بثمر، مهما فلحتها، ومهما ألقيت فيها بذارًا، ومهما رويتها بالماء. في قساوة القلب لا يتأثر ولا يستجيب ولا يبالي. بعكس القلب اللين الحساس لعمل الخير.

ولنا مثال في ذلك، نابال الكرملي وامرأته أبيجايل.

سمع نابال رجاء داود وطلبه وهو في ضيقة، ولم يتأثر. وسمع تهديد داود وتصـــميمه المرعب، ولم يتحرك ولم يبال... أما زوجته أبيجايل، فكانت

على عكس هذا: حالما سمعت الخبر، تحركت بكل إيجابياتها نحو الخير، وأخذت هداياها، وركبت دابتها، وقابلت داود. وبكل حكمة ولطف ورقة، أصـــلحت الموقف كله... أما زوجها فقد انطبق عليه قول ســـليمان: "إِنْ دَقَقْتَ الأَحْمَقَ فِي هَاوُنٍ .. لاَ تَبْرَحُ عَنْهُ حَمَاقَتُهُ" (أم٢٧: ٢٢).

لنأخذ مثلاً آخر، هو شمشون الجبار..

كان نذيرًا للرب، وقد حل عليه روح الرب، وعمل الله به عجائب ومع ذلك مرَّ عليه وقت، وقع فيه في قســـاوة القلب... حينما تعرف بدليلة. وظلت الخطية تقوده خطوة فخطوة، حتى تقســـى قلبه لعمل الروح فيه. وكم من مرة رأى نتائج خطيئته أمام عينيه، ولم يتب. ورأى كيف سـلمته المرأة إلى أيدي أعدائه، وأراه الروح أنها غير مخلصة له، ولكن قلبه لم يكن يستجيب لنداء الروح وقتذاك. كان قد تقسى...

وظل قلبه في قسوته، لا يستجيب لعمل الروح، حتى اِنهار الجبار، وفقد نذره وشعره وبصره، واقتيد أسيرًا!!

ما أقسى القلب الذي يسمع صوت الرب فلا يستجيب! مثال ذلك فيلكس، الذي لما سمع حديث بولس عن البر والدينونة والتعفف، ارتعب، وهذا يدل على صوت الله في قلبه. ولكنه بدلًا من أن يستجيب بالتوبة، قال لبولس: "الآنَ فَاذْهَبْ، وَمَتَى حَصَلْتُ عَلَى وَقْتٍ أَسْتَدْعِيكَ!" (أع٢٤: ٢٥).

إن القلب القاسي، يهرب من صوت الله، ولا يخضع...

وعندما يُقسي الإنسان قلبه، يرفض الدعوة الإلهية. أما الابن الضال، فلمَّا تكلم الله في قلبه، قال: "أَقُومُ، وَأَذْهَبُ إِلَى أَبِي.." (لو١٥: ١٨). وللوقت قام وذهب إلى أبيه.

القديس أُغسطينوس، مرَّ عليه وقت طويل في الضلال، ليس لأنه قسى قلبه، وإنما لأن الصوت لم يكن قد وصل إليه. ولما وصله صوت الله استجاب، وتاب، وصار قديسًا.

وبالمثل مريم القبطية، على الرغم من طول حياتها في الخطية، لما وصلها صوت الرب، للحال استجابت، وسارت في حياة القداسة.. وهكذا أيضًا بيلاجية.

شاول الطرسوسي، على الرغم من اضطهاده للكنيسة، لم يكن قاسي القلب. ولما وصله صوت الله، استجاب للتو.

وعلى الرغم من أنه كان يَجرُّ رجالًا ونساءً إلى السجن، وكان يضطهد هذا المذهب بكل إفراط، إلا أنه لم يقاوم الدعوة الإلهية، ولم يناقش، ولم يستشر لحمًا ولا دمًا. لم يقسِ قلبه، وإنما استجاب بكل سهولة وبكل رضا... وتغير من شاول إلى بولس، بطريقة تعجب لها الكل.. هناك من يتقبل كلمة الله، كمن وجد غنائم كثيرة.

داود النبي، اشـــتهى وزنى وقتل. ولكن لما أتاه صـــوت الله، وجد قلبًا مستجيبًا، تاب، وبلل فراشه بدموعه...

وبالمثل بطرس الرسـول: جحد وأنكر، وسـبّ ولعن، قال لا أعرف الرجل. ولكن ما أن تذكر كلمة الرب لما صـاح الديك، حتى بكى بكاءً مرًا، بقلب يذوب حبًا للرب، لا قساوة فيه. لهذا يقول الرسول: "إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ".

إن سمعتم صوته يدعوكم للتوبة، أو يدعوكم للخدمة...

متى العشـار، كان في مكان الجباية، مشـغولًا بالمال وبالعشـور والظلم. وسـمع كلمة واحدة هي "**اتْبَعْنِي**" فللوقت ترك كل شـيء، وقام وتبع الرب. لم يقس قلبه.

وبالمثل سـمعان وأندراوس، لما سـمعا صـوت الرب: "هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا صَيَّادَيِ النَّاسِ" (مت٤: ١٩)، للوقت تركا كل شـيء وتبعاه. تركا السفينة والشباك والصيد والأسرة. لم يناقشا، ولم يقسيا قلبيهما...

إنما استجابا للصوت، بإيمان، بسرعة، وبفرح...

عذراء النشـيد، لما سـمعت صـوته، تقسـى قلبها في بادئ الأمر. كان الصـوت يسـيل رقةً وحبًا: "اِفْتَحِي لِي يَا أُخْتِي، يَا حَبِيبَتِي، يَا حَمَامَتِي، يَا كَامِلَتِي!..." ولكنها تقســت ولم تفتح، وقالت: "قَدْ خَلَعْتُ ثَوْبِي، فَكَيْفَ

أَلْبَسُهُ؟ قَدْ غَسَلْتُ رِجْلَيَّ، فَكَيْفَ أُوَسِّخُهُمَا؟".

ولكنها لم تستمر في قسوتها، بل قالت: "حَبِيبِي مَدَّ يَدَهُ مِنَ الْكَوَّةِ، فَأَنَّتْ عَلَيْهِ أَحْشَائِي... نَفْسِي خَرَجَتْ عِنْدَمَا أَدْبَرَ"...

وخرجت تبحث عنه في كل مكان وتوصي بنات أورشليم قائلة: "إِنْ وَجَدْتُنَّ حَبِيبِي أَنْ تُخْبِرْنَهُ بِأَنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا" (نش٥: ٢-٨).

هذا هو القلب الحساس، الذي لا يحتمل غضب الرب.

لســـنا نقول عن القلب القديس أنه لا يخطئ. فالجميع أخطأوا، ولكنه قلب إن أتاه صوت الله، لا يستطيع أن يستمر في الخطية. لا يتقسى، بل يستجيب..

داود أخطأ، لكنه رجع بسرعة، وبلل فراشه بدموعه. وبطرس أخطأ، ولكنه خرج خارجًا وبكى بكاءً مرًا.

لم تقس قلوبهم، فدموع التوبة دليل العاطفة والحساسية.

ما مظاهر هذه القسوة؟

أول علاماتها أن الإنسان لا يتأثر بعمل الله فيه.

القلب اللين ســـريع التأثر: دموعه دائمًا في عينيه، وتوبته دائمًا في قلبه، ورجوعه سهل وبسيط.

أما القلب القاســـي فلا يتأثر، مهما كلمه الله، ومهما عمل فيه الروح. لا الكلام الروحي يؤثر فيه كما كان يؤثر من قبل ولا الكنيسة ولا الأسرار ولا الألحان تعصر قلبه، لا شيء من الوسائط الروحية يذيب قلبه أو يلهبه.. دموعه جفت، وقلبه تقسى.

الجفاف، الفتور، عدم التأثر، كلها مظاهر للقساوة الداخلية...

لا يكون الإنسان شجرة مثمرة، لا يشعر بعصارة الحياة تسري في عروقه. لا يخضر، ولا تفوح رائحته الذكية...

يكون كجثة في الكنيسة، لا تتحرك، لا تتغير، لا تتأثر...

مثل هذا الإنسان تكون توبته صعبة...

يقول بولس الرســول في (عب ٦): "لأَنَّ أَرْضًــا قَدْ شَــرِبَتِ الْمَطَرَ الآتِيَ عَلَيْهَا مِرَارًا كَثِيرَةً، وَأَنْتَجَتْ عُشْــبًا صَــالِحًا.. تَنَالُ بَرَكَةً مِنَ اللهِ. وَلكِنْ إِنْ أَخْرَجَتْ شَــوْكًا وَحَسَــكًا، فَهِيَ مَرْفُوضَــةٌ وَقَرِيبَةٌ مِنَ اللَّعْنَةِ، الَّتِي نِهَايَتُهَا لِلْحَرِيقِ".

مســكينة هذه الأرض، التي قلبها قاس، ودموعها جافة، وهي كثيرة العناد، كثيرة النقاش... **فما هي أسباب هذه القسوة، وكيف تعالج؟ كيف يصير القلب قاسيًا، وكيف يتخلص من قسوته؟**

أسباب قساوة القلب

حلاوة الخطية

من أهم الأسباب لقساوة القلب، حلاوة الخطية، كما يقول سليمان الحكيم: "الْمِيَاهُ الْمَسْرُوقَةُ حُلْوَةٌ، وَخُبْزُ الْخُفْيَةِ لَذِيذٌ" (أم٩: ١٧).

حلاوة الخطية تضع غشاوة بين الإنسان ومحبة الله، فيتقسى القلب. وهكذا حدث منذ البدء، في قصة حواء والشجرة...

نظرت المرأة، فإذا الشجرة شهية للنظر، وبهجة للعيون وجيدة للأكل. وحلاوة الخطية، أنستها الوصية، وقست قلبها...

ومن أهم الأمثلة في هذا المجال، قصة شمشون نذير الرب.

كان روح الرب قد حلَّ عليه. ولكنه لما أحب دليلة، وأخطأ، تقسى قلبه فلم يعد يسمع صوت الروح فيه. وعلى الرغم من اتصال المرأة بأعدائه ضده، ومعرفته بذلك، إلا أن حلاوة الخطية سدّت أذنيه عن سماع إنذارات الله، حتى ضاع الجبار...

الخاطئ كلما يصله صوت الله، تسدّ حلاوة الخطية أذنيه، فيتقسى قلبه ولا يسمع ولا يستجيب. ويتحول إلى شخصين: أحدهما رقيق جدًا في

محبته للخطية، والآخر قاسيًا جدًا في صدوده عن الله...

مثل زوجة أب، توغر صدره ضد أبنائه، فيصير قاسيًا في معاملته لهم، بينما يكون رقيقًا جدًا في معاملته لزوجته...

وهكذا نحن في الخطية: الحب والرقة والاستجابة نعطيها للشهوة، أما القسوة والصدود فنعطيها لله.

وفي شعورنا بحلاوة الخطية، ندخل في اِزدواج الشخصية.

وكما قال بولس الرسول: ".. الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ" (رو٧: ١٩). (لست أريده) تعني صوت الروح فيه، أما (إياه أفعل) فتعني القلب الرافض لله الذي يصدّ الروح.

كطالب أيام الامتحانات، صوت يقول له: قم للمذاكرة، مستقبلك، دروسك... وحلاوة النوم تقسي قلبه، لينتظر ويتماهل متمتعًا بالنوم وهكذا بنفس الشعور لا يقوم العابد للصلاة...

حلاوة الخطية توجد منافسًا لله في القلب، فلا يستجيب لله.

مثل قصة الشاب الغني، الذي أتى للمسيح، طالبًا نصحه، طالبًا للأبدية، ولكن محبة المال قست قلبه فمضى تاركًا الرب.

ما الذي قسى قلب فرعون؟ إنها حلاوة الخطية أيضًا...

في كل ضـــربة، كان يطلب التوبة، ويعد الله وعودًا. ثم يعود فيرجع... كيف يمكنه أن يتخلى عن أكثر من ٦٠٠ ألف يعملون أعمالاً بالســـخرة. لذة التمتع بهذا الربح، منعت عنه التوبة...

كالذي يكذب، ويجعل طبيبًا يكذب، ليحصـل على إجازة مرضـية... كلما يقول الروح له إنها خطية، تسكت ضميره، حلاوة الإجازة!

ثم تدخل هنا (العقلانية) فتحاول أن تســكت ضــميره، وتبرر له الأمر، وتتهمه بالحرفية، وتعذره بأن الأمر مألوف..!

ومن أمثلة تأثير حلاوة الخطية، امرأة لوط...

وصـــلها إنذار الرب، وســـمعت صـــوت الملاكين، وســـمعت لوطًا يعظ أصـــهاره، ورأت الملاكين يدفعانها وباقي الأسـرة للخروج حتى لا يقفوا في كل الدائرة. ولكن حلاوة الخطية قســـت قلبها: كيف أترك أموالي، وتعب السنين كلها، أحقًا احترق كل هذا؟ ليتني أنظر للوراء لأبصـر... ونظرت فهلكت...

حلاوة الخطية تقسي القلب. وإن دفعه الروح للتوبة، يؤجل!

أنـا مقتنع بخطئي، لا بـد أن أتوب. ولكن لمـاذا الآن؟ من أجـل حلاوة الخطية، أنتظر قليلًا، وأتوب بعدئذ.

في التأجيل قساوة قلب. الروح يدعو، فتقول ليس الآن!

لم يعد القلب حساسًا لصوت الله كما كان قبلًا. لم تعد المشاعر حارة ومستجيبة ولا مهتمة بعمل الله وبمحبته! عبارة "هذا الأمر يحزن الله"، فقدت تأثيرها على القلب القاسي.

الصحبة الشريرة

† ومن ضمن الأشياء التي تقسي القلب: الصحبة الشريرة.

لو عاشرت أناسًا حساسين نحو الله، يمتلئ قلبك حساسية. ولو عاشرت أناسًا لا يهتمون بالروحيات، فإنهم يقسون قلبك.

مثال ذلك آخاب الملك. الذي قست قلبه زوجته إيزابل...

علمته كيف يقتل الأنبياء ويضطهد الأبرار. وخذوا مثالًا، تصرفه مع نابوت اليزرعيلي. أراد آخاب أن يأخذ حقل نابوت، فرفض نابوت أن يتنازل عن ميراث آبائه، فمضى آخاب إلى بيته مكتئبًا مغمومًا (١مل٢١) ورأته إيزابل هكذا، فوضعت له الخطة: يقتل نابوت.. يتهمه أولًا بالتجديف على الله، ويجلب عليه شهود زور، ويحكم عليه بالموت... وتقسى قلب آخاب، فقتل نابوت.

ولد صغير، تغريه صحبة شريرة بالتدخين، فيهاب الموقف، ويخاف

ويرفض ولكنهم يشـــجعونه، ويقســـون قلبه، حتى يبدأ، ويظلون به حتى يصير التدخين له عادة، بلا خوف...

أتـذكر أني قرأت مرة كتـابًـا عن الهيبز والبيتلز، وكيف علموا زملاءهم الإباحية، وقسوا قلوبهم فعلموهم القتل أيضًا...

كان هؤلاء يخافون، ولكنهم شـــجعوهم، وأمروهم باغتيالات وقســـوا قلوبهم فنفذوا، وتطوروا إلى شرب الدماء...

العقلانية الشريرة

صـــوت الله يمنع الإنســـان من الخطية، لكن الصـــحبة الشـــريرة تقول له: "افعل ولا تخف"، فيفعل بلا خوف، ويتقسى قلبه...

وإن رفض، يتهكمون عليـه: "هل أنـت من الـدقـة القـديمـة"! وبـالإقنـاع وبالإغراء وبالسخرية وبالإلحاح، يتقسى قلبه، ويصير مثلهم...

ربما تكون الصحبة الشريرة أناسًا، وربما تكون كتبًا وأفكارًا...

كإذاعة متطفلة تشـوش على إذاعة واصـلـة إليك. كلما تحاول أن تسـمع، تشوش عليك الإذاعة الدخيلة، هكذا العقلانية الشريرة، التي تشبعك براهينًا وأفكارًا، تغير بها مبادئك، وتقسي قلبك...

مثل شـاب صـغير في بلاد الغرب، يقابله بعض الشـباب، ويحدثونه عن

الحرية حديثًا قد لا يقبله أولًا، ولكنهم يلحون عليه:

ما سلطان المجتمع عليك؟ ما سلطة الوالدين؟ ما سلطة الدولة؟ أنت حر، افعل ما تشاء. لا تفقد شخصيتك، لا تفقد كرامتك، لا تخضع لرأي غيرك... وهكذا يتقسى قلبه، فلا يعود يحترم أحدًا، أو يطيع أحدًا. ويظن أن هذه هي الحرية!! إنها العقلانية الشريرة، والأفكار الجديدة، التي تقسي القلب. إنها ليست تقسية مؤقتة، بل دائمة، لأنها تغيير للقيم والمبادئ.

العوائق

قد يتقسى القلب أيضًا بالعوائق، بالأعذار، كعذراء النشيد.

ناداها الرب أن تفتح له، فقالت: "قَدْ خَلَعْتُ ثَوْبِي، فَكَيْفَ أَلْبَسُهُ؟ قَدْ غَسَلْتُ رِجْلَيَّ، فَكَيْفَ أُوَسِّخُهُمَا؟" (نش٥: ٣)... هكذا تتقدم العوائق لتقسي القلب. كل عمل من أعمال الروح يقف ضده عائق أو عوائق: الصوم أمامه المرض، والسهر أمامه التعب، والصلاة أمامها عدم الرغبة، والاعتراف أمامه الخجل، والتناول أمامه عدم الاستعداد أو عدم الاستحقاق...

وقد يعتذر الإنسان، عن كل هذه الوسائط الروحية، بأن الله إله قلوب، ولا لزوم لكل هذا! وأن الله يعرف ضعف طبيعتنا، وأن الروح نشيط ولكن الجسد ضعيف!

ثلاثة أشـــخاص دعاهم الرب لخدمته، فاعتذر أحدهم بأنه ســـيدفن أباه، والآخر بأنه تزوج، والثالث بأنه اشـــترى خمســـة أزواج بقر ويريد أن يختبرها... مجرد أعذار.

الإنسان القوي لا يهتم بالعوائق، بل ينتصر عليها...

تَعَوُّد الخطية

الإنســـان في بدء الخطية يشـــمئز أو يخاف منها. ولكنه كلما يتعودها، يتقسى قلبه، فتسهل عليه ويشربها كالماء، لا يصحو ضميره، ولا يحتج فكره.

تَعَوُّد الوسائط الروحية

قد يعتاد الإنســـان بعض الوســـائط الروحية، بطريقة تفقد هيبتها وتأثيرها فالكنيسة مثلًا من كثرة تواجده فيها، يتكلم فيها ويضحك، ويتمشى ويجري وينادي غيره، وينسى أنها كنيسة. كذلك قد يفقد هيبة الهيكل بكثرة دخوله، وهيبة الأســـرار بكثرة تناوله، وهيبة الاعتراف والكهنوت، بمصـــادقة الكهنوت! **كإنسان يتعاطى دواءً بكثرة، فيفقد الدواء تأثيره عليه!**

وكما يتقسى الجسم فلا يستجيب للدواء، يتقسى القلب فلا يستجيب لكل وسائط الروح. تصبح عادية بلا تأثير...

أسباب أخرى

† قد تأتي قسوة القلب، من أن القسوة طبيعة فيه.

كالأرض الصخرية التي لا تستجيب بطبيعتها لبذر أو ري...

† وقد يتقسى القلب للاستهانة بلطف الله وطول أناته.

يقول الرسول: "أَمْ تَسْتَهِينُ بِغِنَى لُطْفِهِ وَإِمْهَالِهِ وَطُولِ أَنَاتِهِ، غَيْرَ عَالِمٍ أَنَّ لُطْفَ اللهِ إِنَّمَا يَقْتَادُكَ إِلَى التَّوْبَةِ؟ وَلكِنَّكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاوَتِكَ وَقَلْبِكَ غَيْرِ التَّائِبِ، تَذْخَرُ لِنَفْسِكَ غَضَبًا فِي يَوْمِ الْغَضَبِ.." (رو٢: ٤، ٥).

يخطئ إنسان، ويظن أن غضب الله سيحل عليه بسبب خطيئته. وإذ لا يحدث له شيء، يفقد مخافته، ويستمرئ الخطية، ويتقسى قلبه، فيستمر! أكان الأفضل أن يعاقب؟!

إنسان يحلف على الإنجيل كذبًا، ويضعه على عينيه، ولا يصيب عينيه شيء، فيستهين بالإنجيل وبالكذب وبالحلفان، ويتقسى قلبه، ولا يعود يخاف من المقدسات!

كان يمكن أن يضربه الله، ولكنه أطال عليه أناته، فيتقسى قلبه، ويستهين بطول أناة الله..! هل العقوبة لهؤلاء أفضل؟

الفصل السادس

علاج أمراض القلب

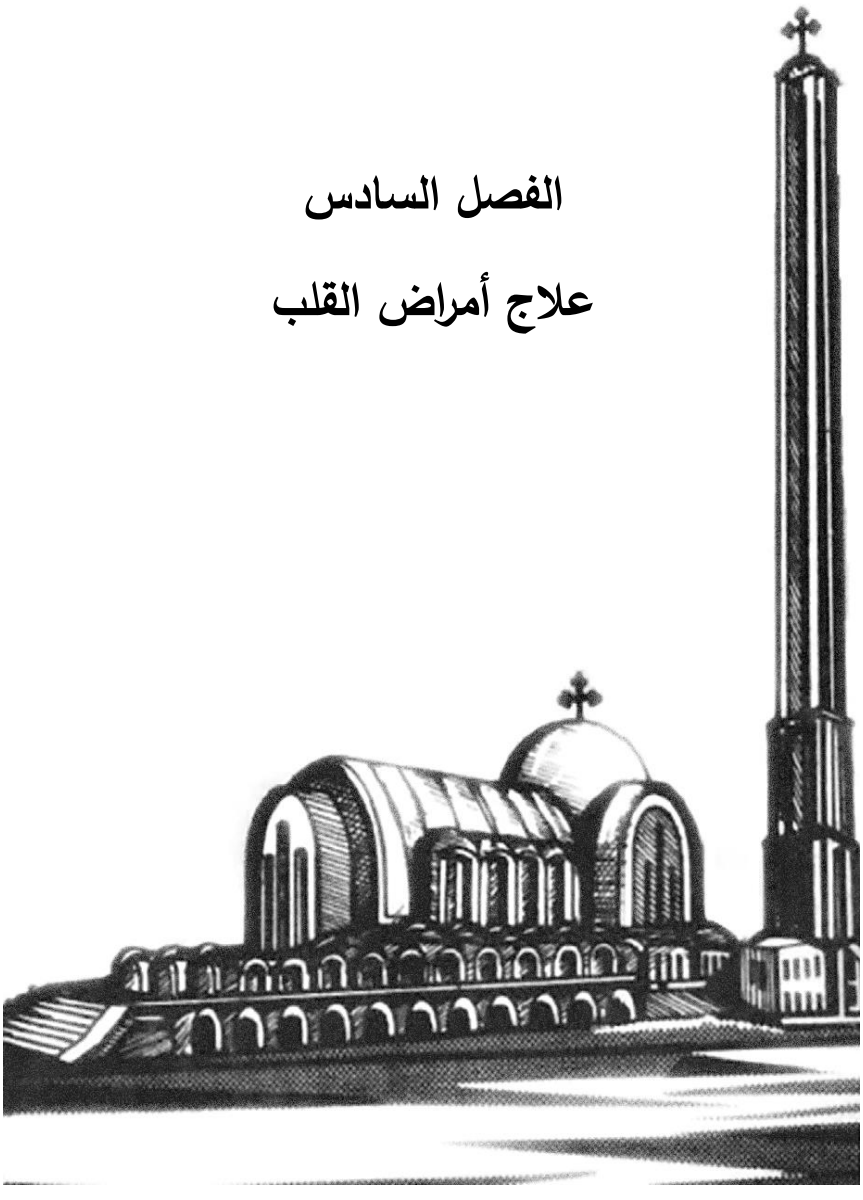

علاج أمراض القلب

١- اتِّضاع القلب

اتِّضـــاع الجســد، واتِّضـــاع القلب والروح. لغة المتِّضـــع تُظهِره. وألفاظه متَّضَـعة مثله. يمتدح غيره، لا يتشـبث برأيه. لا يتعالى ولا يغضـب على أحد، ولا يُغضِب أحدًا. لا يرتفع قلبه مهما علا روحًا أو منصبًا، المتواضِع سهل في تعامُلِه، يأخذ "المتَّكأ الأخير".

✞ ما هي وسائل الاتِّضاع وعلاماته؟

كيف تُدرِك التواضـع؟ وكيف تحصـل عليه؟ وهل لذلك مقاييس يُقاس بها الاتِّضـاع؟ للإجابة على هذا نقول: **هناك اتِّضـاع الجسد واتِّضـاع الروح والقلب من الداخل.**

الإنســان المتَّضــع يظهر الاتِّضــاع في ملامح وجهه، وفي نبرات صــوته وفي نظرات عينيه فهو ينظر إلى الناس في وداعة، ليســـت له النظرات المتعالية، ولا ينظر إلى الناس من فوق.

وصــوته هادئ يتكلَّم بوداعة وليس بسلطان، ولا يحقِد على أحد، ولا يتكلَّم بشِدَّة، ولا بنبراتٍ متكبِّرة، ولا بصوتٍ عالٍ، ولا باحتقار أو استصغار لأحد إنما بلطفٍ، يتحدَّث مع كلِّ أحد. ويَظهر الاتِّضـــــاع أيضًـــــا في طريقةِ

مشـيه، فلا يمشـي بخيلاء. وفي جلوسـه أيضًـا يجلس بأدب ولا ينتفخ في مظهره. كل مظهر المتَّضـــع يدل عليه. على أن الاتِّضـــاع ليس في المظهر فقط، إنما أيضًا في اللسان وفي الفكر وقبل كلِّ شيءٍ في القلب.

ألفاظ المتَّضع تدلُّ عليه

لغته تُظهره، وكذلك المتكبِّر. فالمتَّضـــع لا يمتدِح ذاته، ولا يتغنَّى بأعمالٍ قام بها، ولا يفتخِر ولا يعقِد مقارنات بينه وبين الآخرين، تدلُّ على تفوُّقه ومقدار ارتفاعه عليهم وإدراكِه ما لا يدركون.

✞ المتَّضع يمتدِح غيرَه لا نفسَه.

في كلِّ عملٍ ناجح يقوم به، يذكُر الجانب الذي سـاهم به غيره في إنجاح العمل، وأهمية ما فعله الآخرون، ممتدِحًا ما قاموا به، ناسـيًا نفسـه. وفوق الكل يذكر دور النعمة ويد الله في نجاح العمل، ناســـبًا إلى الرب كل شيء، فلولاه ما كان نجاح.

وهكذا يختفي لكي يظهر الله ولكي يظهر غيره من الناس.

وكلُّ عمل طيب يعمله، يحاول أن يعمله في خفاء، فلا يراه أحد، مبتعدًا عن المظهريات في كلِّ شـيء. وفي كلِّ هذا يُحب الخير في ذاته، لا في أجره ولا في تقدير الناس له. أما محبو المجد الباطل، فإنهم يعملون الخير من أجل مديح الناس، فيفقِد الخير طبيعتـه، ويفقدون هم ما للخير من

أجرٍ، أو يقبلون المجد من الناس وليس من الله.

✞ والمتَّضع لا يدافعُ كثيرًا عن نفسه.

مثل ما حدث ليوسف الصديق. لم يدافِع عن نفسه فيما نُسِب إليه من تهمةٍ باطلة، وارتضَى أن يُلقَى في السجنِ ظُلمًا. ومثلما قَبِل أن يبيعه إخوته كعبد. وفي ذلك سأل القديس موسى الأسود بعض رفقائه: "مَن الذي باع يوسف؟"، فأجابوا: "إخوته". فقال: "بل باعه اتِّضاعه، لأنه لو قال إنه أخوهم، ما أمكن بيعه، لأن كل إنسان لا يبيع إلا ما يملكه".

وكثير من القديسين لم يدافعوا عن أنفسهم، مثلما حدث مع القديس مقاريوس الكبير، ومع القديسة مارينا الراهبة.

قال القديس الأنبا أنطونيوس: "عوِّد لسانَك أن يقول في كلِّ شيءٍ، وفي كلِّ وقتٍ، ولكلِّ أحدٍ: "اغفر لي".. فيأتيك الاتضاع". وقال أيضًا: "لتكُن لك محبة التعب، واظلِم نفسك لكلِّ إنسان، فتملُك الاتضاع".

ونفس هذا الكلام تقريبًا، قاله القديس الأنبا إشعياء: كُن مستعِدًا إزاء كل كلمة تسمعها أن تقول: "اغفر لي". وبذلك تهزِم كلَّ قوة العدو، ويأتيك الاتِّضاع.

وقال القديس الأنبا موسى: "إذا تقَبَّل الإنسان الزجر والتوبيخ، فإن ذلك يولِّد له التواضع. أما تمجيد الناس، فيسبِّب له البذخ وتعاظُم الفِكر".

هكذا عاش آباؤنا النساك، الذين حاولوا أن يقتنوا اتِّضاع القلب بأية وسيلة ممكنة، والذين احتملوا الظلم في صبرٍ وسكوت، متمثِّلين بالسيد المسيح الذي "ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ" (إش٥٣: ٧).

والإنسان المتواضع يكون دائمًا بعيدًا عن الغضب وثورة الأعصاب.

وكما قال القديس دوروثيئوس في ذلك: "إن المتواضِع لا يغضَب من أحد ولا يُغضِب أحدًا". فهو لا يغضَب من أحد لأنه باستمرار يأتي بالملامة على نفسِه في كلِّ شيءٍ. ولا يُغضِب أحدًا لأنه يطلب بركة كل أحد ولأنه يعتقد في أعماقه أن كلَّ أحدٍ أفضل منه. ولذلك نرى أن الاتِّضاع يرتبِط دائمًا بالوداعةِ والهدوءِ.

حقًا أنه ليس كل هادئ متواضِعًا. ولكن كل متواضِع لا بد أن يكون هادئًا، ويكون وديعًا طيبَ القلب.

ومن صفاتِ المتضِّع الطاعة والخضوع لمن هو أكبر منه. سواء كان هذا الكبير، أكبر منه سنًا، أو أكبر منه مقامًا، أو أكبر منه في القامة الروحية، أو في العلاقة الاجتماعية. على أن المتواضِع الحقيقي يرى أن الكل أكبر منه، ولا يرى نفسه أكبر من أحدٍ في شيء، لذلك هو يعامل الكل باحترام، حتى من هم أصغر منه. حتى الخدم يعاملهم بلطف، ويرفع روحهم المعنوية بمعاملته المملوءة لباقة وأدبًا، وذوقًا ولطفًا وتقديرًا.

بل إن المتواضِـع يتَّخِذ دائمًا (المتَّكأ الأخير) حسـب وصـية المسـيح. فهو باسـتمرار يضـع نفسـه آخر الكل، يقدِّم كلَّ إنسـان على نفسـه، مثلما قال القديس بولس الرســول: "مُقَدِّمِينَ بَعْضُــكُمْ بَعْضًــا فِي الْكَرَامَةِ" (رو١٢: ١٠).

وكما اِنحنَى السيد المسيح وغسَل أرجل التلاميذ، يكون هو أيضًـا مستعدًا أن ينحني ويخدِم الكل مهما كان أصـــغر منه. وما أجمل قول الشـــيخ الروحاني: "في كل مكان حللت فيه كُن صغيرَ إخوتك وخديمهم".

وهكذا نرى الرعاة والكهنة والمعلمين في كنيســتنا، يطلقون على أنفســهم ويطلق الناس عليهم لقب (الخُدّام).

وما أجمل الصــلاة التي صــلَّى بها القديس أغسـطينوس من أجلِ شـعبه قائلًا: "أطلب إليك يا رب من أجل ســادتي عبيدك"؛ قال: (ســادتي) مع إنهم أولاده ورعيته. على أننا نريد أن يكون تعبير (خادم) ليس مجرَّد لفظ أو لقب، إنما يستعمله صاحبه بكامل دلالته ومعناه.

والإنسان المتواضع سهلُ التعامُل مع غيرِه، بسيطٌ في تعامُلِه.

لا يتضــايق مطلقًا إن عارَضــه أحد، أو ناقَض رأيه، أو ناقَشــه فيه، إنما يقبَل كلَّ ذلك بموضـوعيةٍ خالصـة، وبروحٍ طيّبة، وبدونِ غضـب، وبدونِ عناد، وبدونِ تشبُّث برأيه.

ولا يفترض باســـتمرار أنه على حق، وكل من يعارضـــه على باطل. ولا مانع لديه من أن يتنازل عن رأيه إن ثبت له أنه خطأ، بل وأيضًـــا يشـكُر من وجَّهه إلى هذا الخطأ في حبٍ حقيقي.

وفي النِقاش لا يقاطِع غيره، ولا يُسكِته لكي يتكلَّم هو، ولا يحاول أن يحطّم غيره، بل قد يثبت لغيره خطأ رأيه في لطف دون أن يجرح مشاعره، أو أن يسـيء إليه. فكذلك كان يفعل القديس ديديموس الضـرير في مناقشـاته مع الفلاسفة الوثنيين، حتى كسب كثيرين منهم إلى المسيحية، وكانوا جميعهم يحبونه.

والمتواضع إن كان في منصب رئاسي لا يرتفع قلبه.

ولا يتعامل مع غيره في تعالٍ أو في كبرياء، كأنهم أدنَى منه أو أقل. ولا يعلو على أحد، ولا يستخدم سلطانه لإخضاع غيره.

إنما هو يتعامَل مع مرؤوسيه كصديق وكزميل، ويُشعِرهم بمحبته وبتقديره. فالســيد المســيح كان يدعو تلاميذه إخوة له. وقال لهم: "لاَ أَعُودُ أُسَـمِّيكُمْ عَبِيدًا لكِنِّي قَدْ سَـمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ" (يو١٥:١٥). وقال عنه الكتاب: إنه شـابه إخوته في كل شيء (عب٢:١٧).

إن الله حينما يرفع إنسانًا في المركز لا يُحِب أن هذا الإنسان ترتفع روحه. أو يرتفع قلبه، فينســـى أنه إنســـان وأنه تراب ورماد! بل على العكس

يتواضـــع بالأكثر لكي يقيم توازنًا بين داخله وخارجه. وذلك مهما نال من جاه أو ســـلطان أو مال أو مركز. أما الذي يرتفع قلبه، فإنه يذكّرنا بالشاعر الذي قال:

لما صديقي صار من أهل الغنى .:. أيقنت أني قد فقدت صديقي

كذلك المتواضـــع لا يرتفع قلبه مهما نما في الروح وفي الفضـــيلة. ومهما نال أيضًـــا من مواهب روحية. بل يعتقد باسـتمرار، أن كل الحياة الروحية التي له، هي من عمل النعمة فيه، من عمل الروح القدس معه. على غير اسـتحقاق منه. وأنه بدون الله لا يقدِر أن يعمل شـيئًا. فعليه أن يشـكُر لا أن يفتخِر.

والمتواضِع يعرِف أنه إن افتخر بشيء ستتخلَّى النعمة عنه، لكي يشعر بضعفه، ويتأكَّد من أنه لا شيء. فيتَّضع أمام الله. ويذكر باستمرار قول الكتاب: "قَبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ، وَقَبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ" (أم١٦:١٨).

وهكذا يتذكَّر باســـتمرار أنه "تحت الآلام" مثل غيره، وأنه ليس أكبر من السـقوط، وليس معصـومًا منه، فإن الخطية "طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرْحَى، وَكُلُّ قَتْلاَهَا أَقْوِيَاءُ" (أم٧: ٢٦).

لذلك هو أيضًـــا أمام جميع الخطايا، لا يفقد احتراســـه أبدًا، ولا يقُل هذه خطايا تحارب المبتدئين وأنا أكبر من هذا المستوى!!

بل هو باستمرار يتمسَّك بصلواتِه طالبًا معونةَ الله في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة، غير معتمِد على قوَّتِه الخاصة في شيء، وعلى فهمِه لا يعتمِد كما يقول الحكيم (أم٣: ٥).

ولا مانع لديه أن يستشير. فالشخص الذي يستشير يشعر أن هناك عند غيره ما ينقصه، ولا يظن مطلقًا أنه غير محتاج لرأي غيره كما يفعل المتكبِّرون.

المتواضِع يستشير، ويعمَل بالمشورة الصالحة. ويثق أنه مهما أوتي من علم ومن خبرة، فهناك من هم أعلى منه في أمورٍ معيَّنة. وحتى إن لم يستشِر، وجاءه رأيٌ صائب تطوَّع به أحدهم دون طلب منه، يأخذ الفائدة التي في هذا الرأي، مهما كان صاحب الرأي أقل أو أصغر منه.

٢- مبدأ اختبار القلب

نعم إن حياةَ كل إنسان هي سلسلة اختبارات: تُختبَر فيها نفسيَّته ومشاعره، ونيَّاته وأفكاره، وكل ما يفعله أو يقوله، وبناءً على هذه الاختبارات يتحدَّد مصيره وأبديته، حين يقف أمام الله الديان العادل في اليوم الأخير. وهذه الاختبارات معروفة لكلِّ إنسان وتتلخَّص في سؤالٍ واحد هو: ما هو موقفه من وصايا الله؟

والعجيب في هذه الاختبارات أن الله – تبارك اسمه – لا يترك الإنسان

فيها وحده، وإنما تساعده النعمة بقدر ما يقبَل هذه النعمة ويتعاون معها، وتظلُّ هذه الاختبارات معه كل يوم، وكل العمر، وكل مراحل الحياة، وبها تقيَّم شخصيَّته ودرجته في الأبدية وعلى الأرض أيضًا.

✞ فترة الاختبار

بعض الناس لم يعيشوا طويلًا فكانت فترة اختبارهم قصيرة، ولكنها أمام الله كانت كافية، تعبِّر عن نوعِ الشخصية وروحانيتها وجهادها، ومدى المحبة التي فيها من نحو الله والناس، على أن اختبار الإنسان ليس هو مجرَّد اختبار لفترة معيَّنة من حياتِه، وإنما للحياة كلها بصفة عامة، لأن البعض قد تمر عليه فترة ضعف لأسبابٍ معيَّنة طارئة، ولكنها لا تدل على طبيعة حياته كلها، إنما هي فترة فتور أو سقوط، استقام بعدها، ونما في النعمة. وربما تكون فترة البداية سيِّئة مثل حياة القديس أغسطينوس، وغيره ممن دخلت التوبة في حياتِهم وغيَّرت مجراها إلى العكس تمامًا.

وإلهُنا الحنون الرحيم لا يأخذ الإنسان فجأة في ساعة ضعف، وإنما يعطيه الفرصة باختبارات أخرى لتصحيح مسار حياته، والمُهم في الاختبارات ليس نوع الاختبار، إنما موقِف الإنسان منه.

✞ فوائد الاختبار

وقد يسأل البعض: ما لزوم هذه الاختبارت ما دام الله يعرِف حقيقتنا دون

أن يختبرنا؟ إلا أنه بهذا الاختبار يعرِف الإنسان ذاتَه، وإن سقط يعرف نقط الضعف التي فيه، ويعرف إتِّجاه إرادته، وإن عوقب لا يشتكي، وإنما يقول في أعماقِ نفسه: "نحن بعدلٍ جوزينا".

وبمعرفتِه لضعفِه يتَّضع ويتوب ويدقِّق في حياته وتصرفاته حتى لا يسقط مرة أخرى. كما أن اختبار أي شخص يكون درسًا لغيره أيضًا، كما أن الاختبارات أيضًا مجالٌ للمكافأة، إذا نجح الإنسان فيها، وعلى رأي أحد القديسين الذي قال: لا يكلَّل إنسان إلا إذا انتصر، ولا ينتصر إلا الذي اختُبِرت شجاعته. كذلك في السماء يأخذ الإنسان الأكاليل المُعدَّة للغالبين.

✞ وسائل الاختبار

طرقُ الاختبار ووسائلها ومصادِرها كثيرة، فبعضها يأتي من ذات الإنسان، والبعض قد يأتي بسبب مضايقات من البشر، والبعض يأتي للأبرار من حسدِ الشياطين وحِيلهم.

إن ظروفًا كثيرة تحدُث في حياةِ كلِّ شخص وتكون اختبارًا له، والمهم ليس من أيِّ مصدر جاء الاختبار، إنما المهم هو صمود الإنسان ونجاحه. كالتلميذ الذي يواجه أسئلة معينة، ليس المهم في نوع المادة التي يختبر فيها، إنما نوع إجاباته ومدى فهمه.

✞ **مجالات الاختبار؛ نقطة الضعف**

قد يُختبَر الإنسان بالذات، بنقطة ضعف فيه. هناك شخصٌ أهم نقطة ضعف فيه هي الأمور الجنسية، وآخر نقطة ضعفه هي محبة المال، وثالث نقطة ضعفه هي محبة السلطة أو محبة الظهور، أو قسوة الطباع، وقد تكون حياته خالية من ضعفات أخرى، والمطلوب منه أن ينجح في نقاط الضعف التي فيه.

وقد يُختبَر الإنسان بأخذِ شيءٍ منه، مثال ذلك من يطالبه الرب بدفع جزء من ماله للفقراء، فهل يدفع أم لا؟ وهل يعتذِر بأسبابٍ قد لا تكون حقيقية؟ أو يؤجِّل؟ أم يدفع وهو متذمِّر؟ كما يختبره الرب أيضًا بتقديس يومٍ من الأسبوع له، فهل يحقِّق ذلك أم ينشغِل بأمور أخرى وينسى أن هذا هو يوم الرب؟!

وقد يُختبَر الإنسان بالأمراض أو بالضيقات، فهل يتذمَّر وينسِب ذلك إلى الله الذي سمح بالمرض أو بالضيقة؟ وتقلُّ محبَته لله، وبخاصةٍ إذا صلَّى ولم يستجِب الله لصلاتِه، أو تأخَّر عليه في الاستجابة! أما البار فلا يتغيَّر قلبه بتغيُّر الأحوال التي تطرأ عليه، إنما هو في كلِّ ضيقاته يقول: "المُرُّ الذي يختاره الرب لي خيرٌ من الشهد الذي اختاره لنفسي"، و"كل ما تسمح به يا رب أقبله بشكر".

✞ وقد يُختبَر الإنسان بالإغراءات.

سواء كانت إغراءات جسدية أم مالية، أو خاصة بالمناصب والألقاب، أو بأية شهوة أخرى يتعرَّض لها الشخص، ونلاحظ أن الشهداء لم يحاربوا فقط بالتعذيب وإنما كثير منهم حورب بإغراءات معينة فرفضها.

وربما يُختبَر الإنسان بالنجاح والعظمة فهل يرتفع قلبه بذلك؟ وهل يتعالَى على غيره ويفقد تواضعه، أم يبقَى كما هو؟ وقد قال أحد الأدباء عن مثل هذا الشخص أنه: **يكبر دون أن يتكبَّر، ويحتفظ بثباتِه في وثَباتَه.**

ومثل هذا الاختبار يحدُث للذين يُنعِم الله عليهم بمواهب معيَّنة، كالذكاء مثلًا، أو الجمال أو النبوغ في الفن، أو بأيةِ مواهب فائقة للطبيعة، فكيف يستخدم هؤلاء مواهبهم؟ وهل ترتفع قلوبهم بها؟

أحيانًا يكون العتاب اختبارًا لقوة الاحتمال، إذا كان الذي يعاتب شديد اللهجة يُظهِر لك أخطاءك من نحوه، ومن نحو غيره، فهل أنت تقبل العتاب بصدر رحب وروح طيبة، وتكسب من يعاتبك وتكسب فضيلة الاحتمال؟ أم أنت تثور وتضِج وتعتبر إظهار أخطائك إهانة لك؟ ونفس الوضع مع الذي يكلمك بصراحة وبغير مجاملة فتستاء منه وقد تخسره!

إن كلَّ كلمة قاسية تُوجَّه إليك وكلَّ معاملة سيئة تُعامَل بها، كلها اختبار لشخصيتك ولموقِفك منها، وهنا تختلف ردود الفعل عند كثيرين حسب نوع

طباعِهم وشخصياتِهم وروحياتِهم ونوع تعاملِهم مع الناس.

وأنت أيها القارئ العزيز قد تقول أنك تُحبُّ الناس جميعًا، وأنك مستعدٌ أن تبذل ذاتك عن بعض من أصدقائِك ومحبيك، ثم تصطدم بتصرُّف واحد منهم لم تكن تنتظره، إنه تصرف سيئ ولكنه اختبار لمحبتك التي تتحدث عنها: هل هي محبة تستطيع أن تغفر؟ أم هي من النوع الذي لا يحتمل ويتحوَّل بسرعة ويتغيَّر؟!

حقًا إن المحبة ليست بالكلام إنما تقع تحت الاختبار. لا تتضايق يا أخي من الاختبارات، وإنما حاول أن تكون ناجحًا فيها وصلبًا وقويًا.

٣- طول الأناة

طول الأناة، كلمة أناة مشتقَّة من التأنِّي. كيف أن الله طويل البال، يقول طول البال أو طول الروح، أو طول الأناة، كلهم بمعنى واحد. كثيرًا ما أطال الله أناتَه على أناسٍ خطاة وأعطاهم فرصة لكي يتوبوا، يقول الكتاب: "..عَالِمٍ أَنَّ لُطْفَ اللهِ إِنَّمَا يَقْتَادُكَ إِلَى التَّوْبَةِ" (رو٢: ٤).

لكن لا تظن عندما يطيل الله أناته عليك، برحمتِه التي ليس لها حدود، أن عدلَه ليس له وجود، يطيلُ أناتَه، فإن لم يأتِ بنتيجة، يعاقب، وربما تكون عقوبته شديدة جدًا، هذا معناه أن طول أناة الله إما تقود إلى التوبة، أو تقود إلى الدينونة، لأن عطف الله وحنانه، لا يمنع عدله، أطال أناته على

خُطاة كثيرين، وقادهم إلى التوبة، أطال أناته على القديس أغسطينوس، في كلِّ ما أخطأ به، عمليًا وفكريًا، وقاده أخيرًا إلى التوبة.

أطال أناته على شاول الطرسوسي الذي كان يضطَّهِد المسيحية بعنف، وهو قال عن نفسه: "أَنَا الَّذِي كُنْتُ قَبْلًا مُجَدِّفًا وَمُضْطَهِدًا وَمُفْتَرِيًا، وَلكِنَّنِي رُحِمْتُ، لأَنِّي فَعَلْتُ بِجَهْل فِي عَدَمِ إِيمَانٍ" (١تي١:١٣)، لولا طول أناة الله على شاول الطرسوسي ما كنا قد عثرنا على رسولٍ عظيم جدًا هو بولس الرسول الذي تعب أكثر من جميع الرُسل.

طول أناة الله على الأمم الذين كانوا لا يعبدون الله، حتى آمنوا، وطول أناته على المُلحدين، وطول أناته على الشيوعيين، الذين ظلُّوا ينكِرون وجودَ الله سبعون عامًا، وأخيرًا رجعوا إلى الإيمان. لقد أطال الله أناتَه على كثيرين، وأعطانا بذلك مثالًا كي نطيل أناتنا.

✞ ما معنى أن نطيل أناتنا؟!

يوجد أشخاص طباعهم مُتعِبة ونحن عندما نصطدِم مع أحدِهم، ممكن أن نقع في الغضب ونكون قد سقطنا، لكن تغيير الطباع يحتاج إلى وقت وتدريب، لا تعتقد أنك قد تُغيِّر طبعَ أي شخص بسهولة، يجب أن تطيل أناتك عليه حتى يستطيع أن يغيِّر طبعه، كما أن تغيير الأوضاع يحتاج إلى وقت.

يوجد ممن ينادون بالإصلاح في أي إتجاه، من يَسقطون في الغضب والانفعال والشتيمة ويقومون بسبِّ الآخرين والتركيز على ما يظنون أنه من أخطائِهم، معتقدين أن ما يريدونه يمكن تنفيذه في لحظةٍ، غير عالمين أن الإصلاح يحتاج إلى وقت، يجب أن يضع الإنسان في ذهنِه العامل الزمني.

وقد أعطانا الله أمثلة كثيرة، الدجاجة ترقد على البيض مدة معيَّنة حتى يسخَن وينمو ويخرُج الكتكوت من البيضة، لا يمكن أن يخرُج قبل الوقت، يحتاج إلى مدة معينة، هل تستطيع الدجاجة أن تقول: أخرُج يا كتكوت، كيف يخرُج؟ لا بد من مدة معيَّنة، حتى يكتمِل النمو.. كما قال القديس يوحنا ذهبي الفم: "الجنين في البطن يأخذ مدته حتى ينمو ويأتي الوقت الذي يخرُج فيه من بطنِ أمِّه، ينمو قليلًا قليلًا قليلًا قليلًا حتى يأتي وقته، كذلك الروح أيضًا تنمو قليلًا قليلًا حتى تصل إلى الكمال المطلوب".

أيُّ شجرة لا تستطيع أن تأخُذ منها ثمر إلا بعد مدة معيَّنة، يوجد نوع من الشجر يأخذ سنوات قليلة، ونوع آخر يأخذ سنوات كثيرة حتى يُعطي ثمرًا، لذلك يقول الكتاب: "تُعطي ثمرَها في حينه"، هل هذا يغضِبك؟! أنت تقول لا يوجد عندي وقت للانتظار، طبائعُ الأمور تتطلَّب منك الانتظار.

أيضًا اكتساب فضيلة من الفضائل. أحيانًا أكون في تنفيذ تدريب، وأجد

نفسي تارة أسلك حسنًا، وتارة أسقط، حتى أصل إلى الفضيلة. لماذا تتزعج وتفكِّر أنه لا فائدة، وتستصعِب الطريق، أطِل أناتك، حتى يُصلِح الله كلَّ الأمور. الحياة لا تسير هكذا.

كما أن اكتِساب الفضيلة يحتاج إلى وقت حتى يكتسِبها الإنسان بعد تدريبٍ طويل، وبعد سقوطٍ وقيام.

كذلك التخلص من خطية يحتاج إلى وقت، وخصوصًا إذا كانت الخطية قد تحوَّلت إلى عادة أو أصبحت طبعًا، تحتاج إلى وقت، لكن لا تعتمِد على هذا الاحتمال، وتقول: "اتركني يا رب أخطئ وبعد ذلك أتوب في الوقت المناسب"، ما دام بإمكانك يجب أن تعمل كل ما يمكنك، لأنك لا تعلَم وقت النهاية. لا تنتظر بإرادتك في الخطية. لذلك يعطي السيد المسيح في الدعوة إلى الفضائل هذا التدريج، الكتاب المقدس يقول: "سَقَيْتُكُمْ لَبَنًا لاَ طَعَامًا، لأَنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا بَعْدُ تَسْتَطِيعُونَ.." (١كو٣:٢) مثل الأطفال.

٤- هدوء القلب وهدوء الفكر

لا يكفي أن يكون الإنسان هادئًا من الخارج، في كلامِه وفي أعصابِه، إنما يجب أن يكون هادئًا في الداخل أيضًا. تكون نفسه هادئة.

وهدوء النفس من الداخل، هو الذي ينبع منه الهدوء الخارجي. إن

النفس التي تغلي من الداخل، حيثما حلَّت يحلُّ الغليان والتوتُّر. تعيش كشعلة: حيثما أُلقِيَت، أَحرَقَت وانتشرت نارها هنا وهناك. لدرجة أن أمثال هؤلاء الناس إذا دخلوا مكانًا، يتهامَس البعض قائلين: "يا رب استر".

ولكن الإنسان الهادئ من الداخل، نرى هدوءه الداخلي يفيض هدوءًا في الخارج.

نجد صوته هادئًا، ومشيته هادئة، ومعاملاته هادئة، ومناقشاته هادئة ومريحة. وفي هدوئه لا يصيح ولا يتشاجر، بل تكون علاقته طيبة مع جميع الناس. إذ لا يلجأ إلى المشادة أو إلى العنف مع أحد. هذا من الخارج. أما من الداخل، فيتمتع بهدوء الفكر وهدوء القلب.

الإنسان غير الهادئ من الداخل، تكون في داخله أفكار كثيرة: تموج وتطيش، وتذهب وتجيء، ولا تثبُت على حال. ففكر يجذبه إلى هنا، وفكر يشده إلى هناك. وذهنه دائم التغيُّر. والأفكار تؤثِّر على نفسه لأنها غير مستقرَّة.

وغير الهادئ يقاسي أيضًا من عدم الهدوء في مشاعره.

انفعالاته وأحاسيسه غير هادئة. رغباته وآماله طائشة غير مستقرة. يجذبها الخيال أحيانًا إلى آفاقٍ عالية لا يستطيع الوصول إليها، ويحطُّه الفكر العملي إلى واقعه البعيد عن آماله. ويظل يضطرب بين الرغبةِ

والواقع. فتضطَّرِبُ معه انفعالاته. وقد يقع في اضطرابات نفسية عديدة، نذكر من بينها القلق.

والشخص الذي يعيش في قلق، هو فاقد لهدوئه.

فالقلق يدلُّ على عدمِ هدوءِ النفس. والقلق يدفع إلى الخوف. والإنسان المصاب بالقلق، أفكاره غير هادئة وغير مستقرَّة.

والقلق قد يدعو إلى الشك. والشك يُفقِد النفس هدوئها.

والإنسان الشكاك لا يكون هادئًا مطلقًا من الداخل. ويُسائِل نفسَه باستمرار: هل هو على حقٍ في شكوكِه؟ وهل يجوز أن تكون شكوكه غير حقيقية؟ وكيف يمكنه أن يتحقَّق من هذه الشكوك ويثبتها؟

فهو يشُك. ثم يشُك في شكِّه! وتبقى أفكاره غير هادئة. وقد تعذِّبه نفسيًا وتُتعِبه. وهذا التعب يزيد من عدم هدوئه. **كما أن الشك قد يُتعِب الشخص في علاقاته مع الآخرين.**

والشكُّ له أنواع، وكلُّها تُفقِد الهدوء.

سواء كان شكًا في وقائعٍ أو في أشخاص. أو شكًا في علاقات. أو كان شكًا في عقيدةٍ، أو في الله نفسه! وربما يكون الشك في مستقبله، وما ينتظره فيه.

وفي كل ذلك الشك يكون العقل مضطَّرِبًا، وتكون النفسُ أيضًا مضطَّرِبة.

على أية الحالات، هدوء القلب يجلب هدوء الأفكار.

إذا كان القلب مستريحًا وهادئًا، تُصبِح أفكار صاحب هذا القلب مستريحة أيضًا وهادئة. وإذا اضطَّربَت أفكارَه يضطَّرِب. وهكذا حسبما يكون القلب، تكون الأفكار أيضًا. إن كانت في القلب عواصف وبراكين، تجد الأفكار كأنها في سوق يبيعون فيه ويشترون! وبالعكس إذا كان القلب هادئًا، تهدأ معه الأفكار. على أن هناك أشخاصًا نفسياتهم ضعيفة، يضطَّربون لأتفهِ الأسباب. وربما لمجرَّد الوهم، بغير سببٍ حقيقي.

وفي اضطرابِهم يفقدُ القلبُ هدوءَه، ويفقدُ الفكرُ هدوءَه. وينعدِم الهدوء الداخلي ويظهر عدم الهدوء في تصرفاتِهم أيضًا.

ومن مظاهرِ عدم هدوء الفكر، حالة الفكرِ الطائِش الجوَّال.

فالفكر الهادئ مُركَّز، مستقِّر في موضوع تفكيره، وله عمقٌ في التفكير. أما الفكر غير الهادئ، فإنه يجول من موضوعٍ إلى موضوع. ويطيش في أمور متعدِّدة. كمن تطيش أفكاره حتى أثناء الصلاة! وكما قال واحد من الآباء: "إذا كانت النار طعامها الوقود، فإن الفكر طعامه القصص".

الفكر الطائش غير الهادئ يهوَى القِصص والأخبار والرغبات وينتقِل من خبرٍ إلى خبر، ومن قصةٍ إلى قصة، ومن سيرةِ شخصٍ إلى سيرة آخر.

بل ينتقِل هذا الفكر من بلدٍ إلى بلد، دون أن يهدأ. إنه يذكِّرنا بالشـــيطان الذي من عمله الجَوَلان في الأرض والتمشِّي فيها.

ومن مظاهر عدم هدوء الفكر، حالة الفكر النَقَّاد.

الفِكر الذي لا يعجبه أحد، ولا يعجبه شـــيء! له نظرة قاتِمة سـوداء. فهو باستمرار ثائرٌ على الأوضاع، يرَى أن الحقَ قد ضاع! فيحتد على كلِّ ما يُعرَض أمامه، حتى إن كان لا دخلَ له فيه، وحتى إن كان لم يدرِس الموضـوع ولم يفهمه! ولكنه مع ذلك ساخط على كلِّ شـيء، متذمِّر من كلِّ شيء، منتقِد لكلِّ شيء، فاقِد لهدوئه.

والفكر الفاقد لهدوئه، يعمل على إشـــاعة عدم الهدوء في نفوسِ الآخرين.

ينشـر أفكاره القلقة غير الهادئة. يصـبَّها في آذان الآخرين وفي أذهانِهم. ويتحمَّس لها، ويعمل على إقناع الناس بها وقد يفلح في ذلك أو لا يفلح. وحتى إذا لم ينجح في نشـــرِ أفكاره غير الهادئة، فإنه يُفقِد الســـامعين هدوءهم بسبب مناقشاتِه.

ومن الأفكار غير الهادئة، الفكر اللحوح.

الفِكر الذي يُلِّح على ذهنِ صاحبِه إلحاحًا، ويضـغط عليه بطريقةٍ متعِبة. بينما يحاول الشـخص أن يتخلَّص منه فلا يسـتطيع. وبإلحاح هذا الفكر

عليه، يفقد هدوءه. وبخاصة ذلك الفكر الذي ينام به الإنسان ويصحو، وهو مستمِر. يُلِح عليه حتى أثناء عمله، وأثناء صلاته، وأثناء راحته، بلا هوادة، وبلا انقطاع. مثل هذه الأفكار غالبًا ما تكون حربًا من الشيطان.

لأن الأفكار الروحية هادئة باستمرار. أما الشيطان فإنه يضغط بأفكاره بلا رحمة، ويدفع الشخص إلى سرعةِ التنفيذ. وهو بإلحاحِه يضغط على الأعصاب ويُتعِبها، لكي تَحسِب أن التنفيذ هو أسهل وسيلة لراحتها. إن الفكرَ اللحوح فكرٌ مشاغِب، لا يشاء أن يترك للإنسان فرصة للمشورة، ولا فرصة لفحصِ الفكرِ ومناقشته، كما لو كان يريد أن يُرغِم الشخص عليه إرغامًا.

✞ ومن أنواع الأفكار غير الهادئة: الفكر المتقلّب.

الذي يعرِض الشيء وينقلب إلى عكسِه. وتارةً يوافِق على الأمر، وتارةً يعارِضه. يتحمَّس للموضوع حينًا، ويفتُر حماسه بعد حين. هو كأمواج البحر تمتد وترجع في غير ثبات. إنه فكرٌ متقلِّب، أو هو فكرٌ متردِّد، يسبِّب لصاحبه الحيرة وعدم الهدوء وعدم الاستقرار. يقول الكتاب: "رَجُلٌ ذُو رَأْيَيْنِ هُوَ مُتَقَلْقِلٌ فِي جَمِيعِ طُرُقِهِ" (يع١: ٨).

أما الفكرُ الهادئ، فهو يشبِه السفينة التي تشُق طريقها في هدوء في مسارٍ واحد، لا تضطَّرِب فيه ولا تنحرِف يُمنةً ولا يُسرة.

الأفكار غير الهادئة تفقد القلب هدوءه. وكذلك القلب غير الهادئ يكون مصـــدرًا لأفكارٍ مضـــطَّربة. كلٌ من القلبِ والفِكر يكون للآخر ســـببًا أو نتيجة.

فالقلب بكل ما فيه من مشـــاعر وأحاســـيس وانفعالات. كالحزن والغيظ والحِقد، والشـهوة، والاضـطراب، والرغبة في الانتقام، والرغبة في السـيطرة أو التملُّك. القلب الذي فيه شـيءٌ من هذه المشـاعر وما يماثلها، لا يمكن أن يكون هادئًا. وكذلك أفكاره. ومما يُفقِد القلب هدوءه بالأكثر، الرغبات التي تتطلَّب سـرعة تحقيقها، بينما هذه السـرعة لا تكون متوافرة في الواقع العملي. فيفقد القلب هدوءه.

القلبُ الهادئ، يرَى كل شيء هادئًا، فلا يضطِّرب بشيء. أما القلب غير الهادئ، فيرى في كلِّ شيءٍ سببًا للاضطِّراب.

لذلك يضـــطَّرب، ويثير الاضـــطِّراب حيثما حل! القلب الهادئ لا تزعِجه المشـــاكل الخارجية، وإنما يتقبَّلها في هدوء ويتناولها بعقل، ويحلِّلها ويفحصـها، ويحلَّها في هدوء. ولا يسـمح للاضـطِّراب الخارجي أن يدخل إلى داخل نفسه لكي يعكِّر صفوها! إنه لا يترك المشكلة تنتصر عليه، بل ينتصر هو عليها.

يقول لنفسـه: لا أريد أن تزعجني هذه المشـكلة، ولا أريدها أن تدفعني إلى

الغضـــب أو النرفزة أو الحزن. ولا أن تُفقدني ســـلامي. أريد أن تبقَى هذه المشكلة خارجي، ولا تدخُل إلى داخل نفسي.

القلبُ الهادئ بحرٌ عميق، قد تطفو المعكِّرات على ســـطحه، فلا تُزعِج هدوئه. وإن هبطَت إلى أعماقِه تذوبُ وتتلاشَى.

أما إن انزعج الإنســـان من الداخل وفقد هدوءه، فإنه يعجَز عن حلِّ مشـــكلاته، فتُزعِجه، ويظهر عدم الهدوء في تصـــرفاتِه، وفي التعامُل مع الناس والأحداث. **والقلب الهادئ يصلُح للعمل الروحي، أما إذا فقَد القلب هدوءه، فإنه لا يقدِر على التأمُّل.**

وإذا حاول الصـــلاة تسـرَح أفكارُه، وإن قرأ كتابًا يسـرح أثناء القراءة. لذلك كان محبو التأمل، يبحثون عن الهدوء والســـكون. لأنه في الجو الهادئ والمكان الهادئ، يمكِنهم أن يمارسوا عملهم الروحي.

القلب الهادئ يبسِط هدوءَه على الإنسان كله: هدوء القلب يسبِّب هدوء الفكر وهدوء الأعصاب، وهدوء الملامِح.

ونودُّ أن نتحدَّث عن هذه النقطة الأخيرة: قليل من الناس يســـتطيعون أن يتحكَّموا في ملامحهم.

فغالبًا ما تكون الملامح كاشِفة لحالة القلب. سواءً أراد الإنسان ذلك أو لم يرد. إن اضـطرب قلبه، يظهر الاضـطراب في ملامحه. إن اغتاظ، إن

تضـايق، إن اشـمئز، إن خاف. يظهر كل ذلك في ملامِح وجهه، أو في نظراتِ عينيه. حتى إن سرَح في أحلامِ اليقظة، تكشِفه ملامحُه.

ملامحُه هي اعترافات غير إرادية، تكشفُ ما في داخل القلب والفكر.

فقد يضـطَّرب وينكِر اضـطِّرابه، ولكن ملامحه تُعلِن أنه غير صـادق في إنكاره. وحين يفقد الإنسان هدوءه القلبي إن سألوه عن السبب ينكر. ولكن نبرات صـــوته، وحركات يديه، ونظرات عينيه، وربما حركة شـــفتيه، وخلَجات وجنتيه. كل ذلك ينطِق بما في داخِله بما لا يسمح بمجالٍ للشك.

لا تظنّوا أن للقلبِ خزائن مغلَقة تكتِم أســـراره! فكثيرًا ما يكون مكشـــوفًا ومفتوحًا بواسـطة الملامح. وغالبًا ما تكون عيْن الشـخص مرآة ترى فيها مشـاعره الداخلية، وربما تقرأ فيها أفكاره أيضًـا. أيُّ إنسـان لمّاح يسـتطيع ذلك.

لهذا بعض الناس يلبسـون نظارات سـوداء، حتى لا يتمكَّن مجالسـوهم من رؤية انطباعاتَهم، وردودَ فعلهم، ومشاعرهم الواضحة في عيونهم.

✞ القلبُ الهادئ، ملامحُه هادئة ومريحة.

تُحِب أن تجلس إليه وتتأمَّل ملامِحه: تتأمَّل الهدوء العجيب الذي يفيض من القلب ويكســـو الملامح. لذلك لم يكن عجيبًا أن أحد تلاميذ القديس أنطونيوس الكبير قال لـه: "يكفيني مجرَّد النظر إلى وجهك يا أبي". ففي

وجهه كان يرى السـلام الداخلي الذي يملأ قلبه. وكان يرى كل ما في القلب من طهارة وبِر.

أما القلبُ غير الهادئ، فملامح وجه صـاخبة غير مريحة. لذلك إن لم يكن لكم هدوء القلب. فحاولوا أن تتحكَّموا في ملامِحكم لتكون هادئة ومريحة.

✞✞✞

تاريخ نشر المقالات

مقالات من مجلة الكرازة

+ يا ابني أعطني قلبك (٧/ ٩/ ٢٠٠٧).

+ لا تقسوا قلوبكم (١٩٧٧/٨/٥).

+ أسباب قساوة القلب (١٩٧٧/٨/١٢).

مقالات من جريدة وطني

+ الكبرياء (١٩٨٨/٣/٢٧).

+ وسائل الاتضاع وعلاماته (١٩٨١/٣/١٥).

+ المسيح منفتح القلب (١٩/ ١١/ ١٩٧٢).

مقالات من جريدة الجمهورية

+ أهمية القلب (٢٠٠٣/٨/٥).

+ القلب وعمله الروحي (٢٠٠٣/٨/١٢).

+ القلب الكبير (٢٠٠٣/١٢/٩).

+ القلب العطوف الشفوق (٢٠٠٣/١٢/١٦).

مقالات من جريدة الأهرام

+ القلب أهميته وعمله (٢٠٠٦/٩/١٠) – (٢٠٠٦/٩/١٧).

+ القلب الكبير (٢٠٠٧/٨/٢٦).

+ القلب العطوف (٢٠٠٧/١٢/١٦) (٢٠٠٧/٩/٢).

+ قساوة القلب (٢٠٠٨/١١/٣٠).

+ حياتنا سلسلة اختبارات (٢٠٠٨/٨/٣).

جرائد أخرى

+ **مجلة مدارس الأحد:** جاء المسيح يهتم بالقلب (فبراير ١٩٩٧).

+ جريدة **المشاهير:** نقاوة القلب (٢٠٠٧/٩/١٠).

+ جريدة **أخبار اليوم:** الكبرياء والتواضع (٢٠٠٦/٢/١١) و(٢٠٠٦/٢/١٨).

الفهرس

طُرس البركة قداسة البابا تواضروس الثاني ٧

قداسة البابا شنوده الثالث في سطور ٩

هذا الكتاب..... ١١

المسيح منفتح القلب..... ١٤

منفتح القلب لكل الأمم ١٤

منفتح القلب للعشارين والخطاة..... ١٦

يسعى وراء كل أحد ١٧

منفتح القلب للصغير والكبير ١٨

منفتح القلب حتى لمقاوميه ١٨

أنشودة الحب ٢١

أهمية القلب ٢٤

القلب مصدر المشاعر ٢٤

القلب والفكر ٢٦

القلب والإرادة ٢٧

القلب واللسان..... ٢٧

القلب والعمل الروحي ٣٠

القلب والحياة مع الله ٣٠

القلب والإيمان ٣١

القلب والوصية..... ٣٢

القلب والعبادة ٣٣
القلب والصلاة ٣٤
القلب وفضيلة العطاء ٣٧
القلب والتوبة ٣٨
القلب والعمل الإيجابي ٤٤
صفات القلب وأنواعه ٤٨
١- القلب المتواضع ٤٨
٢- القلب الصالح ٤٩
٣- القلب النقي ٥٠
٤- القلب الكبير ٥٠
٥- القلب العطوف الشفوق ٥٩
أمراض القلب ٧٢
١- قساوة القلب ٧٢
٢- الكبرياء ٧٦
ما هي الكبرياء؟ ٧٨
أسباب الكبرياء ٨٠
مظاهر الكبرياء ٨٣
لا تقسوا قلوبكم ٨٨
لا تقسوا قلوبكم ٨٨
ما مظاهر هذه القسوة؟ ٩٤

أسباب قساوة القلب ٩٦
حلاوة الخطية ٩٦
الصحبة الشريرة ٩٩
العقلانية الشريرة ١٠٠
العوائق ١٠١
تَعَوُّد الخطية ١٠٢
تَعَوُّد الوسائط الروحية ١٠٢
أسباب أخرى ١٠٣
علاج أمراض القلب ١٠٦
١- اتِّضاع القلب ١٠٦
٢- مبدأ اختبار القلب ١١٣
٣- طول الأناة ١١٨
٤- هدوء القلب وهدوء الفكر ١٢١
تاريخ نشر المقالات ١٣١